

فصل

في نوبة كسرة الرمله وكانت على المسلمين بالجملة وذلك
يوم الجمعة غرة جمادى الآخرة أو ثانيه

ورحل السلطان بعساكره، فنزل على عسقلان يوم الأربعاء التاسع
والعشرين من جمادى الأولى فسبى وسلب، وغنم وغلب، وأسر وقسر
وكسب وكسر، وجمع هناك من كان معه من الأسارى، فضرب أعناقهم،
وتفرق عسكره في الأعمال مغيرين ومبيدين، فلما رأوا أن الفرنج خامدون
استرسلوا وانسطوا، وتوسط السلطان البلاد، واستقبل يوم الجمعة
مستهل جمادى الآخرة بالرمله راحلاً لقصد بعض المعامل، فاعترضه نهر
عليه تل الصافيه، فازدحمت على العبور أثقال العساكر المتوافيه، فما
شعروا إلا بالفرنج طالبة بأطلاها، حازبة باحزابها، ذابة بذئابها، عاوية
بكلاها، وقد نفر نفيهم وزفر زفيرهم، وسرايا المسلمين في الضياع مغيره،
ولرحى الحرب عليهم في دورهم مديره، فوقف الملك المظفر تقي الدين
وتلقاهم وباشرهم ببيضه وسمره، فاستشهد من أصحابه عدّة من الكرام،
انتقلوا إلى نعيم دار المقام، وهلك من الفرنج أضعافها، وكان لتقي
الدين ولد يقال له أحمد أول ماطر شاربه، فاستشهد بعدما أردى فارساً.

قال: وكان لتقي الدين أيضاً ولد آخر اسمه شاهنشاه وقع في أسر
الفرنج، وذلك أن بعض مستأمني الفرنج بدمشق خدعه، وقال له تجيء
إلى الملك وهو يعطيك الملك، وزوّر له كتاباً فسكن إلى صدقه، وخرج
معه فلما تفرد به شدّ وثاقه وغله وقيده وحمله إلى الداوية، وأخذ به مالا،
وجدّد عندهم حالاً وجمالاً، وبقي في الأسر أكثر من سبع سنين حتى
فكه السلطان بهال كثير، وأطلق للداوية كل من كان لهم عنده من أسير،
فغلظ القلب التقوي على ذلك الولد جر هلاك أخيه، ولما عاد من الغزوة
زرناه للتعزية فيه، قال: ولو أن لتقي الدين رداء لأردى القوم، لكن

الناس تفرقوا وراء أثقالهم، ثم نجوا برحالهم وصوب العدو بجملتهم حملتهم على السلطان، فثبت ووقف على مقدمة من تخلف، وسمعتة يوماً يصف تلك النبوة، ويشكر من جماعته الصحبة، ويقول: رأيت فارساً يحث نحوى حصانه، وقد صوّب إلى نحري سنانة، فكاد يبلغني طعانه، ومعه آخران قد جعلاً شأنها شأنه، فرأيت ثلاثة من أصحابي خرج كل واحد إلى واحد منهم فبادروه وطعنوه، وقد تمكن من قربي فما مكنوه، وهم إبراهيم بن قنابر، وفضل الفيضي، وسويد بن غشم المصري، وكانوا فرسان العسكر، وشجعان المعشر، واتفق لسعادة السلطان أن هؤلاء الثلاثة رافقوه، وما فارقوه وقارعوا العدو دونه وضايقوه، فما زال السلطان يسير ويقف حتى لم يبق من ظن أنه يتخلف، ودخل الليل، وسلك الرمل، ولا ماء ولا دليل، ولا كثير من الزاد والعلف ولا قليل، وتعسفوا السلوك في تلك الرمال والأوعاث والأوعار، وبقوا أياماً وليالي بغير ماء ولا زاد حتى وصلوا إلى الديار، وأذن ذلك بتلف الدواب وترجل الركاب ولغوب الأصحاب، وفقد كثير ممن لم يعرف له خبر ولم يظهر له أثر، وفقد الفقيه ضياء الدين عيسى وأخوه الظهير، ومن كان في صحبتهم فضل الطريق عنهم وكانوا سائرين إلى وراء، فأصبحوا بقرب الأعداء فأكمنوا في مغاره وانتظروا من يدهم من بلد الاسلام على عماره، فدل عليهم الفرنج من زعم أنه يدل بهم وسعى في أسرهم وعطبهم، فأسروا وما خلص الفقيه عيسى وأخوه إلا بعد سنين بستين أو سبعين ألف دينار، وفكاك جماعة من الكفار.

قال: وما اشتدت هذه النبوة بكسره ولا عدم نصره، فإن النكاية في العدو وبلاده بلغت منتهاها وأدركت كل نفس مؤمنة مشتهاها، لكن الخروج من تلك البلاد شنت الشمل، وأوعر السهل، وسلك مع عدم الماء والدليل الرمل، ومما قدره الله تعالى من أسباب السلامة، والهداية إلى الاستقامة أن الأجل الفاضل استظهر في دخول بلاد الأعداء باستصحاب الكنانية والأدلاء وأنهم ما كانوا يفارقونه في الغداء والعشاء فلما وقعت

الواقعة خرج بدوايه وغلماناه وأصحابه وأدلائه وأثقاله، وبث أصحابه في تلك الرمال والوهاد والتلال، حتى أخذ خبر السلطان، وقصده وأوضح بأدلائه جددته، وفرّق ما كان معه من الأزواد على المنقطعين، وجمعهم في خدمة السلطان أجمعين، فسهل ذلك الوعر وأنس بعد الوحشة القفر، وجبر الكسر، وكان الناس في مبدأ توجه السلطان إلى الجهاد، ودخول الأجل الفاضل معه إلى البلاد، ربما تحدّثوا وقالوا: لو قعد وتخلف كان أولى به، فإن الحرب ليست من دأبه، ثم عرف أن السلامة والبركة والنجاة كانت في استصحابه، وجاء الخبر إلى القاهرة مع نجابين فخلع عليهم وأركبوا وأشيع بأن السلطان نصره الله، وأن الفرنج كسروا وغلبوا، فركبت لأسمع حديث النجابين، وكيف نصر الله المسلمين، وإذا هم يقولون: أبشروا فإن السلطان وأهله سالمون، وإنهم واصلون غانمون، فقلت لرفيقي: ما بشر بسلامة السلطان إلا وقد تمت كره، وما ثم سوى سلامته نصره، ولما قرب خرجنا لتلقيه، وشكرنا الله على ما يسره من ترقيه وتوقيه، ودخل القاهرة يوم الخميس منتصف الشهر، ونابت سلامته مناب الدهر، وسيرنا بها البشائر، وأنهضنا ببطاقتها الطائر لإخراس السنة الأراجيف، وإبدال التأمين من التخويف، فقد كانت نوبتها هائلة، ووقعتها غائله.

قال القاضي ابن شدّاد: خرج السلطان يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرملة، وذلك في أوائل جمادى الأولى، وكان مقدّم الفرنج البرنس أرناط، وكان قد بيع بحلب فإنه كان أسيراً بها من زمن نور الدين رحمه الله، وجرى خلل في ذلك اليوم على المسلمين، ولقد حكى السلطان قدّس الله روحه صورة الكسرة في ذلك اليوم، وذلك أن المسلمين كانوا قد تعبّوا تعبئة الحرب فلما قارب العدو رأى بعض الجماعة تغيير الميمنة إلى جهة اليسرة، واليسرة إلى جهة القلب ليكون حال اللقاء وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملة، فبينما اشتغلوا بهذه التعبية هجم الفرنج، وقدّر الله كسرهم، فانكسروا كسرة عظيمة، ولم يكن

لهم حصن قريب ياوون إليه، فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا في الطريق، وتبددوا، وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى، وكان وهنا عظيماً جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة، والله الحمد.

قلت: وذلك بعد عشر سنين، فكسرة الرملة هذه كانت في سنة ثلاث وسبعين، وكسرة حطين كانت في سنة ثلاث وثمانين.

قال العماد الكاتب وحيث كانت للملك المظفر تقي الدين في هذه الغزوة اليد البيضاء أنشدته قصيدة منها:

سقى الله العراق وساكنيه
وحياه حيا الغيث الهتون
وجيراننا أمنت الجور منهم
ومافيهم سوى واف أمين
صفوا والدهر ذو كدر وقدماء
وفوا بالعهد في الزمن الخؤون
بنو أيوب زانوا الملك منهم
بحلية سؤدد وتقى ودين
ملوك أصبحوا خير البرايا
لخير رعية في خير ديار
أسانيد السيادة عن علاهم
معننة مصححة المتون
بنو أيوب مثل قریش مجداً
وأنت لها كأنزعها البطين
أخفت الشرك حتى الذعر منهم
يرى قبل الولادة في الجنين
ويوم الرملة المرهوب بأسا
تركك الشرك منزعج القطين
وكنت لعسكر الاسلام كهفا
أوى منه إلى حصن حصين

وقد عرف الفرنج سطاك لما
رأوا آثـاره عـين اليقين
وأنت ثبت دون الدين تحمي
حماه أو ان ولي كل دين

قال: واهتم السلطان بعد ذلك بإفاضة الجود، وتفريق الموجود، وانتقاد الناس بالنقود، والسنايا الصادقة الوعود، وجبر الكسير، وفك الأسير، وتوفير العدد وتكثير المدد، وتعويض ما نفق من الدواب، فسلوا ما ناهبهم، ولم يأسوا على ما أصابهم.

قال ابن أبي طي: وقال ابن سعدان الحلبي يمدح السلطان: ويذكر ما فعله على عسقلان، ويهون عليه أمر هذه الكسرة من قصيدة:
قربت من عسقلان كل نائبة
باتت تقل بوكاف من الاسل
فاض النجيع عليها وهي محلة
فأصبحت مرتعا للخيل والإبل
قل للفرنجية الخذل رويدكم
بالثار أو تخرج الشعري من الحمل
ترقبوها من الفوار طالعة
خوارق الأرض تمحورونق الاصل
كأنني بنواصيهن يقدمها
كأس من الجود عريان من البخل
حسب العدايا صلاح الدين حسبهم
أن يقرفوك بجرح غير مندمل
وهل يخاف لسان النحل ملتمس
مرت على أصبعيه لئذ العسل

فصل

في وفاة كمشتكين وخروج السلطان من مصر بسبب حركة الفرنج

قال العماد: وقعت المنافسة بين الحلبيين مدبري الملك الصالح، واستولى على أمره العدل ابن العجمي، وكان سعد الدين كمشتكين الخادم مقدّم العسكر وأمير المعشر، وهو صاحب حصن حارم، وقد حسده أمثاله من الأمراء والخدّام، فسلموا لابن العجمي الاستبداد بتدبير الدولة، فففز عليه الاسماعيلية يوم الجمعة بعد الصلاة في جامع حلب فقتلوه، واستقل كمشتكين بالأمر، فتكلم فيه حساده وقالوا للملك الصالح: ما قتل وزيرك ومشيرك ابن العجمي إلا كمشتكين فهو الذي حسن ذلك للإسماعيلية، وقالوا له: أنت السلطان، وكيف يكون لغيرك حكم أو أمر، فما زالوا به حتى قبض عليه وطالبوه بتسليم قلعة حارم، وأوقعوا به لأجلها العظائم، فكتب إلى نوابه بها فنبوا وأبوا فحملوه ووقفوا به تحت القلعة، وخوفوه بالصرعة فلما طال أمره قصر عمره، واستبد الصغار بعده بالأمور الكبار، وامتنعت عليه قلعة حارم، وجرّد إليها العزائم، ونزل عليه الفرنج ثم رحلوا بقطيعة بذها لهم الملك الصالح، واستنزل عنها أصحاب كمشتكين وولى بها مملوكاً لأبيه يقال له سرخك .

وقال ابن الاثير: سار الملك الصالح من حلب إلى حارم ومعه كمشتكين فعاقبه ليأمر من بها بالتسليم فلم يجب إلى ما طلب منه فعلق منكوساً ودخن تحت أذنه فمات وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها، ثم أنه أخذها بعد ذلك.

قال ابن شدّاد: أما الملك الصالح فإنه تخبّط أمره، وقبض كمشتكين صاحب دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه، فلم يفعل، فقتله، ولما سمع

الفرنج بقتله نزلوا على حارم طمعاً فيها، وذلك في جمادى الآخرة، وقاتل
عسكر الملك الصالح العساكر الفرنجية، ولما رأى أهل القلعة خطرهما
من جانب الفرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الأواخر من شهر
رمضان، ولما عرف الفرنج بذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم، ثم
عاد الصالح إلى حلب، ولم يزل أصحابه على اختلاف يميل بعضهم إلى
جانب السلطان قدس الله روحه.

قال العماد: ووصل في هذه السنة إلى الساحل من البحر كند كبير
يقال له اقلندس أكبر طواغيت الكفر، واعتقد خلو الشام من نصري
الاسلام، ومن جملة شروط هدنة الفرنج أنهم إذا وصل لهم ملك أو كبير
مالهم في دفعة تدبير أنهم يعاونونه ولا يباينونه، ويخالفونه ولا يخالفونه،
فإذا عاد عادت الهدنة كما كانت، وهانت الشدة ولا نت، وبحكم هذا
الشرط حشدوا الحشود، وجندوا الجنود، ونزلوا على حماه في العشرين من
جمادى الأولى، وصاحبها شهاب الدين محمود الحارمي مريض ونائب
السلطان بدمشق يومئذ أخوه الأكبر تورانشاه، وهو والأمراء مشغولون
بلذاتهم، وكان سيف الدين علي بن أحمد المشطوب بالقرب فدخلها
وخرج للحرب، واجتمع إليها رجال الطعن والضرب، وجرت ضروب من
الحروب، وكادت الفرنج تهجم البلد فأخرجوهم من الدروب، ونصر الله
أهل الاسلام بعد حصارهم لهم أربعة أيام، فانهزم الملاحين، ونزلوا على
حصن حارم كما تقدّم ذكره، فرحلهم عنه الملك الصالح بعد حصار
أربعة أشهر.

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد: « خرج الكفار إلى البلاد الشامية
فاسخين لعقد كان محكماً، غادرين غدرًا صريحاً، مقدرين أن يجهزوا على
الشام لما كان بالجذب جريحاً، ونزلوا على ظاهر حماه يوم الاثنين الحادي
والعشرين من جمادى الأولى، وزحفوا إليها في ثانيه، فخرج إليهم
أصحابنا، وتضمن كتاب سيف الدين — يعني المشطوب — أن القتلى

من الفرنج تزيد على ألف رجل ما بين فارس وراجل، شفى الله منهم الصدور، ورزق عليهم النصر والظهور، ثم انصرفوا مجموعاً لهم بين تنكيس الصلب وتحطيم الأصباب، مفرقة أحزابهم عن المدينة المحروسة، كما افترقت عن المدينة الشريفة النبوية الأحزاب .

قال العماد: وتسامع الحلييون بيوم رحيلنا من مصر، لقصد الشام، لنصرة الاسلام، وقالوا: أول ما يصل صلاح الدين نسلم حارم، فراسلوا الفرنج وقاربوهم، وأرغبوهم وأرهبوهم، وقالوا لهم: صلاح الدين واصل، ومالككم بعد حصوله عندكم حاصل، فرحل الفرنج بقطيعة من المال أخذوها، وعدة من الأسارى خلصوها، ثم توفي خال السلطان شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي في جمادى الآخرة، وتوفي ولده تكش ابن خال السلطان قبله بثلاثة أيام، وذلك أوان وقعة الرملة، ولما سمع السلطان بنزول الفرنج على حارم رحل من البركة يوم عيد الفطر بعساكره، ووصل إيلة في عاشر الشهر، واستتاب بمصر أخاه العادل، وأقام بها أيضاً القاضي الفاضل بنية الحج في السنة القابلة، ووصل السلطان إلى دمشق في الرابع والعشرين من شوال، وبما نظمه العماد في التشوق إلى مصر قوله:

ساكني مصر هناكم طيبها
إن عيشي بعدكم لم يطب
لأعدمتم راحة من قريها
فأنا من بعدها في تعب
بعد العهد بأخباركم
فابعثوا أخباركم في الكتب
ليت مصراعرفت أني وإن
غبت عنها فإلهوى لم يغب

ومن ذلك قوله

تذكرت في جلق داركم
بمصر ويأ بعد ما بيننا
وما أتمنى سوى قربكم
وذلك والله كل المنى
لكم بالجنان وطيب المقام
م وحسن النعيم بمصر الهنا

ومن ذلك أيضا
يا ساكني مصر قد فقتم بفضلكم
ذوي الفضائل من سكان أمصار
لله دركم من عصابة كرمتم
و در مصركم الغناء من دار

ومن ذلك أيضا
يا حبيبا مصر و بـ
كتها و صدر والعريش
فهنالك أملاك الذي
من سمت بعزهم العروش

قال: ووصل كتاب من الفاضل يذكر فيه أن العدو خذله الله نهض،
ووصل إلى صدر، وقاتل القلعة ولم يتم له أمر، فصرف الله شره، وكفى
أمره، ووصل من الفرنج مستأمن، وذكر أنهم يريدون الغارة على فاقوس،
فاستقلوا أنفسهم، وعرجوا وذكر أنهم مضوا بنية تجديد الحشد، ومعاودة
القصد.

قال: وأما نوبة العدو في الرملة، فقد كانت عشرة علينا ظاهرها، وعلى
الكفار باطنها، ولزمتنا ما نسي من اسمها، ولزمهم ما بقي من عزمها، ولا
دليل أدل على القوة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها إلى الشام

نخوض بلاد الفرنج بالقوافل الثقيلة، والحشود الكبيرة، والحريم المستور،
والمال العظيم الموفور.

قال العماد: ولما دخلنا دمشق وجدنا رسل دار الخلافة قد وصلوا
بأسباب العاطفة والرفقة، وكان حينئذ صاحب المخزن ظهير الدين
أبوبكر منصور بن نصر العطار، وهو من ذوي الأخطار، وله التحكم في
الايراد والاصدار، وقد توفر على محبة السلطان، وتربية رجائه، وتلبية
دعائه، ووصل كتابه ورسوله بكل ما سر السرائر ونور البصائر.

فصل

في ذكر أولاد السلطان

قال العماد: وفي هذه السنة ولد بمصر للسلطان ابنه أبو سليمان داود، وكتب الفاضل إلى السلطان يهنئه به ويقول: «إنه ولد لسبع بقين من ذي القعدة، وهذا الولد المبارك هو الموفى لاثني عشر ولداً بل لاثني عشر نجماً متوقداً، فقد زاد الله في أنجمه على أنجم يوسف عليه السلام نجماً، ورأهم المولى يقظة، ورأى تلك الأنجم حلماً، ورأهم ساجدين له، ورأينا الخلق له سجدوا، وهو قادر سبحانه أن يزيد جدود المولى إلى أن يراهم أباء وجدوداً».

قال العماد: وكنت في بعض الليالي عند السلطان في آخر عهده، وجرى ذكر أولاده، واعتضاده بهم واعتداده، فقلت له: لو عرفت أيام مواليدهم في أعوامها لأنشأت رسالة على نظامها، فذكر لي ما أثبتته على ترتيب أسنانهم:

— الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي، ولد بمصر ليلة عيد الفطر عند العصر، سنة خمس وستين وخمسةائة.

— العزيز أبو الفتح عثمان، عماد الدين، ولد بمصر ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين.

— الظافر أبو العباس خضر مظفر الدين، ولد بمصر في خامس شعبان سنة ثمان وستين، وهو أخو الأفضل لأبويه

— الظاهر أبو منصور غازي غياث الدين، ولد بمصر منتصف رمضان سنة ثمان وستين.

— المعز أبو يعقوب اسحاق فتح الدين، ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبعين.

— المؤيد أبو الفتح مسعود نجم الدين، ولد بدمشق في ربيع الأول سنة إحدى وسبعين، وهو أخو العزيز لأبويه.

— الأعز أبو يوسف يعقوب شرف الدين، ولد بمصر في ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين، وهو أخو العزيز لأمه.

— الزاهر أبو سليمان داود مجير الدين، ولد بمصر في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين، وهو أخو الظاهر لأمه.

— المفضل أبو موسى قطب الدين، ثم نعت بالمظفر، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وهو أخو الأفضل لأمه.

— الأشرف أبو عبد الله محمد عزيز الدين، ولد بالشام سنة خمس وسبعين وخمسمائة.

— المحسن أبو العباس أحمد ظهير الدين، ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين وهو لأم الأشرف.

— المعظم أبو منصور تورانشاه فخر الدين، ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين.

قلت: ومات سنة ثمان وخمسين، وهي السنة التي أخرج العدو من التار خذلم الله تعالى مدينة حلب وغيرها والله أعلم.

— الجواد أبو سعيد أيوب ركن الدين، ولد في ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وهو لأم المعز.

— الغالب أبو الفتح ملكشاه نصير الدين، مولده بالشام في رجب سنة ثمان وسبعين وهو لأم المعظم.

— المنصور أبو بكر، وهو أيضاً أخو المعظم لأبويه، ولد ببحران بعد وفاة السلطان.

قلت: فهذه خمسة عشر ولداً ذكرهم العماد في هذا الموضع، وقال في آخر كتاب الفتح القدسي، على ما سنذكره في آخر هذا الكتاب أن السلطان، لما توفي خلف سبعة عشر ولداً وابنة صغيرة، فقد فاته هنا ذكر اثنين وهما عماد الدين شاذي لأم ولد، ونصرة الدين مروان لأم ولد، وأما البنت فهي مؤنسة خاتون تزوجها الملك الكامل محمد على ما سنذكره، وهو ابن عمها الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وللسلطان غير هؤلاء الأولاد بمن درج في حياته كالمملك المنصور حسن وسيأتي ذكر وفاته والأمير أحمد وهو الذي رثاه العرقلة بقوله:

أي هلال كسفا

وأي غصن قصفا

كان سراجاً قد طفى

على الوري ثم انطفأ

لم يركب الخيل ولم

يقلدوه مرففا

قل للنحاة ويحكما

أحمد لم قد صرفا

صبرا صلاح الدين يا

رب السماح والسوف (١٥٥)

قال العماد: وورد من الفاضل كتاب تاريخه منتصف ذي الحجة سنة ثلاث وسبعين، يذكر فيه فصلاً متعدداً منها: للمولى أولاد وقد صاروا رجالاً، ويجب أن يستجيد للقلاع رجالاً، كما فعل السابقون أعماراً وأعمالاً،

وقيل القلاع أنوف من حلها شمخ بها « ما في الرجال على النساء أمين »
ومنها أبيات في ذكر السلام:
مملوك مولانا ومملوك ابنه
وأخيه وابن أخيه والجيران
طبي الكتاب إليه منه إجابة
لسلام مولانا ابنه عثمان
والله قد ذكر السلام وإنه
يجزي بأحسن منه في القرآن
وغريبة قد جئت فيها أولاً
ومن اقتفأها كان بعدي الثاني
فرسولي السلطان في أرسالها
والناس رسالهم إلى السلطان

قلت: وقد وصف الفاضل الملك المؤيد في كتاب آخر فقال: « وقد
تمتت به السنّ وامتدّت، وتأهبت السعادة لخطبته واعتدّت، ولا حظته
العيون بالوقار، وطرفت دون جلالته وارتدّت ».

وفي بعض كتب الفاضل عن السلطان إلى ولده الأفضل: « إعزازه
لأهل الفضل دليل على فضله، وإن الأولى أن تكون كتب الأدب عند
أهله، وما أبهجنا إذ جال في فضاء الفضائل، وخطب من أبكار المعالي
كرائم العقائل، وأخي بين السيف والقلم، وصار في موكبه العلم
والعلم ».

ومن كتاب آخر في المعنى: « فلقد زادت هذه المنقبة في مناقبه،
ونظمت عقود سؤدد في تراثه ».
فما ترجم الانسان عن سرفضله
بأفضل من تقريره لأولي الفضل

قال العماد: وخرج السلطان للصيد في ذي الحجة نحو قارا، فشكوت
ضربي، وهدمت أنسي، فرجعت مع عز الدين فرخشاہ لحمى عرته
فشكا منها لا تزور إلا نهاراً جهاراً، ولا يفارق العرق بالضد من الحمى
التي وصفها أبو الطيب المتنبى فنظمت فيه كلمة طويلة أوطأ:

يمينك دأبها بذل اليسار
وكفك صوبها بدر النصار
وانك من ملوك الأرض طراً
بمنزلة اليمين من اليسار
وانت البحر في بث العطايا
وانت الطود في بادي السواقار

ومنها في وصف الحمى
وزائرة وليس بها حياء
فليس تزور إلا في النهار
لو رهبت لى الاقدام جورى
لما رغبت جهاراً في جوارى
أت والقلب في وهج اشتياق
ليظه ر ما أوارى من أوارى
لو عرفت لظى سطوات عزمى
لكانت من سطاي على حذار
تقيم فحين تبصر من أتاني
ثبات الطود تسرع في الفرار
تفارقني على غير اغتسال
فلم أحلل لزورتها إزارى

ومنها:

أيا شمس الملوك بقيت شمساً
تنير على المالك والديار

ومنها:

أحماك استعمارت لفتح نار
لعزمك لم تزل ذات استعمار

فصل

قال العماد: وفي العشر الأول من ذي القعدة قتل عضد الدين رئيس الرؤساء وزير الخليفة ببغداد على أيدي الملاحدة، وكان قد توجه إلى الحج، فوقف له في مضيق قَطُفُتَا (١٥٦) غربي دجلة كهل في يده قصة يزعم إنه يريد رفعها إلى الوزير من يده إلى يده، فأوماً ليوصل قصته فانتهاز فيه فرصته فقتله، وبدر كمال الدين أبو الفضل بن الوزير فقتل قاتل أبيه بسيفه، وكان مع ذلك الجاهل الملحد رفيقان له، فجرح أحدهما حاجب الباب ابن المعوج فمات، وجرح آخر ولد قاضي القضاة، وقطع الملاحدة وأحرقوا واستقل ظهير الدين أبوبكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار صاحب المخزن بالدولة، وكان للسلطان خدنا مصافيا.

قلت: وابن العطار هذا، هو المرجوم المسحوب بعد موته ببغداد كما سيأتي ذكره في آخر حوادث سنة خمس وسبعين.

قال ابن الاثير: وكنت حينئذ ببغداد عازماً على الحج، فعبر عضد الدين دجلة في شبرة، فلما ركب دابته والناس معه ما بين راكب وراجل تقدّم إليه بعض العامة ليدعو له، فمنعه أصحابه، فزجرهم وأمرهم أن لا يمنعوا أحداً عنه، فتقدّم إليه الباطنية فقتلوه بالجانب الغربي فتوفي بها.

قال العماد: ووردت مطالعة الفاضل إلى السلطان تتضمن التوجع لقتل الوزير عضد الدين وفيها: « (وماريك بظلام للعبيد (١٥٧)) فقد كان عفا الله عنه قتل ولدي الوزير ابن هبيرة، وأزهق أنفسهما وجماعة لا تحصى.

من ذابير بذنبه
والده لا يغتريه

وهذا البيت بيت ابن المسلمة عريق في القتل، وجده هو المقتول بيد البساسيري في وقت إخراج الخليفة القائم في أيام الملقب بالمستنصر بمصر، فهو من ذرية لم تنزل قاتلة مقتوله، وما زالت السيوف عليها ومنها مسلولة، فهم في هذه الحادثة المسمعة المصمة كما قال دريد:

أبي الموت إلا آل صمة (١٥٨)

والأبيات المولى يحفظها وهي في الحماسة، وقد ختمت له السعادة، بما ختمت به له الشهادة، لا سيما وهو خارج من بيته إلى بيت الله قال الله سبحانه: (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) (١٥٩)

إن المساءة قد تسرو بها
كان السرور بها كرهت جديرا
إن الوزير وزير آل محمد
أودى فمن يشناك كان وزيراً

وهذان البيتان قبلا في أبي سلمة الخلال أول وزير لبني العباس.

قلت: وبلغني أن الفاضل قال في ذلك:
وأحسن من نيل الوزارة للفتى
حياة تريحه مصرع الوزراء

قال العماد: وكان ضياء الدين بن الشهرزوري قد سار في الرسالة إلى بغداد، وتوقف في الموصل لحادثة الوزير، ووافق وصوله إلى الموصل وفاة ابن عمه القاضي عماد الدين أحمد بن القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، وكان شاباً، وجاء كتاب الفاضل يذكر ذلك وفيه:

يسدل ابــــن عشرون في لحده
والتسعون صاحبها راتع

اغتبط الولد مع نضارة الشباب المقتبل، وعمر الوالد مع ذبول
المشيب المشتمل، ليعلم أن الشيب ليس بمسلم، وأن الشباب الغض
ليس بمانع، وليكون العبد حذراً من بغتات الأجال في كل الأحوال، والله
يطيل للمولى العمر كما أطال له في القدر، ويسمع منه، ولا يسمع فيه
ويقيه سنداً للدين الحنيفي فإن بقاءه يكفيه .

آخر الجزء الأول من الأصل المنقول منه، الذي هو بخط المؤلف .
ويتلوه في الجزء الثاني — إن شاء الله تعالى: ثم دخلت سنة أربع وسبعين
وخمسةائة. والحمد لله وحده، وصلى الله على من لاني بعدة.

على يد العبد الضعيف، المفتقر إلى رحمة ربه اللطيف، محمد بن أحمد
البودري المغربي الأزهري، لطف الله به وبالمسلمين أجمعين.

وذلك في غرة ربيع الأول من شهور ألف ومائة وعشرون من الهجرة
النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. وآخر دعوانا أن الحمد لله
رب العالمين.

آخر الجزء الأول من الروضتين بأخبار الدولتين النورية والصلاحية
لأبي شامة رحمه الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

ثم دخلت

سنة أربع وسبعين وخمسة

قال العماد: وكان شمس الدين بن المقدم من أكابر الأمراء وهو السابق إلى مكاتبة السلطان في تصويب رأيه في الوصول إلى الشام، وتدارك أمر الاسلام، وكان السلطان عند تسلم بعلبك أنعم بها عليه، ورد أمورها إليه، فأقام بها مستقرا ولأخلاف أعمالها مستدرا، ولما وصل السلطان في هذه النوبة إلى الشام، لم يحضر كما جرت العادة للخدمة والسلام، فإنه كان ينمي إليه أن الملك المعظم مجد الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب طلبها من أخيه، وأنه لا يمكنه الرد فخاف من الحضور أن تتم الأمور، وروجع في ذلك مرارا سرا وجهارا والتزم له أن يعرض عنها، ما هو أوفى منها، فأبى إلا الإباء وشارف السلطان منه ومن أخيه الحياء وشمس الدولة لا يقبل عذرا، ولا يرى عما طلبه صبرا، ثم استأذن أخاه في التوجه إليها فأذن له، وتوجه عز الدين فرخشاه إلى حوران لحفظ الثغور، وسار السلطان إلى حمص، ونزل على العاصي عازما على الجهاد.

ووردت من الفاضل كتب من بعض فصولها: وأما سور القاهرة فعلى ما أمر به المولى شرع فيه، وظهر العمل وطلع البناء، وسلكت به الطريق المؤدية إلى الساحل بالمقسم، والله يعمر المولى إلى أن يراه نطاقا مستديرا على البلدين وسورا بل سوارا يكون به الاسلام محلى اليدين، محلاً الضدين، والأمير بهاء الدين قراقوش ملازم الاستحثاث بنفسه ورجاله، لازم لما يعنيه بخلاف أمثاله، قليل التثقيب مع حمله لأعباء التدبير وأثقاله.

ومنها في حق نقل القضاء من شرف الدين بن أبي عصرون لما ذهب بصره إلى ولده: لن يخلو الأمر من قسمين، والله يختار للمولى خيرة الأقسام، ولا ينسى له هذا التحرج الذي لا يبلغه ملك من ملوك الاسلام إما ابقاء الأمر باسم الوالد بحيث يبقى رأيه ومشاورته وفتياه وبركته، ويتولى ولده النيابة ويشترط عليها المجازاة لأول زله، وترك الإقالة لأول عشرة، فطالما بعث حب المنافسة الراجحة على إكتساب الأخلاق الصالحة، وأما أن يفوض الأمر إلى الإمام قطب الدين، فهو بقية المشايخ وصدر الأصحاب، ولا يجوز أن يتقدم عليه في بلد إلا من هو أرفع طبقة في العلم منه.

ومنها في إقامة عذر التأخر عن الجهاد: وأما تأسف المولى على أوقات تنقضي عاطلة من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، وتجدد العوائق التي لا يوصل إلى آخر حبلها، فللمولى نية رشده، وأليس الله العالم بعبده، وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله لأنه غير مقدور له، ولكن عن النية لأنها محل تكليف الطاعة، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة، وإذا كان المولى آخذاً في أسباب الجهاد وتنظيف الطرق إلى المراد، فهو في طاعة قد امتن الله عليه بطول أمدها، وهو منه على أمل في نجاح موعدها، والثواب على قدر مشقته وإنما عظم الحج لأجل جهده وبعد شقته، ولو أن المولى فتح الفتوح العظام في أقل

الأيام، وفصل القضية بين أهل الاسلام وأعداء الاسلام، فكانت تكاليف الجهاد قد قضيت، وصحائف البر المكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت.

ومنها في ذكر أولاد السلطان: وقبل الإجابة عن الفصول فنشر بما جرت العادة به لاقطع الله تلك العادة من سلامة وصحة وعافية شملت موالينا وأولاده السادة، أطاب الله الخبر إليهم عن المولى، وإلى المولى عنهم، وعجل لقاءهم ولقاءهم له، فإنهم من يلق منهم، بل كل منهم ملك دسته برجه، وفارس مهده سرجه، فهم بحمد الله بهجة الدنيا وزينتها، وريحانة الحياة وزهرتها، وإن فؤادا وسع فراقهم لواسع، وإن قلبا قنع بأخبارهم لقانع، وإن طرفا نام على البعد عنهم لهاجع، وإن ملكا ملك تصبره عنهم لحازم، وإن نعمة الله فيهم لنعمة بها العيش ناعم، أما يشتاق جيد المولى أن يتطوق بدررهم، أما تظمى عينه إلى أن تتروى بنظرهم، أما يحن قلبه على قلبه، أما يلتقط هذا الطائر بتقبيلهم ماخرج من حبه، وللمولى أبقاه الله تعالى أن يقول:

وما مثل هذا الشوق تحمل مضغة

ولكن قلبي في الهوى متقلب

وفي أخرى: والملوك الأولاد في كفالة العافية لارفعت عنهم كفالتها، وعليهم جلاله السلطنة لافارقتهم جلالتها، وكل من الموالى السادة الأمراء الأولاد والقادة كلهم جوهر، وكلهم المقدم، وليس فيهم بحمد الله من يؤخر على ماعود الله من صحة وسلامه، وكفاية ووقاية، ولزوم المستقبل منهم لمشهد الكتاب، ولموقف الآماج (١) ومخائل الخفر فيهم من تحت ليل الصبا أنور دلالة من ضوء السراج، والله تعالى يمد في عمر المولى إلى أن يرى من ظهورهم مارأى جدهم رحمه الله في أهل بيته من البطن الرابع، فوارس الحرب الرائعة، وملوك الاسلام التي منهم للاسلم أكاسرة وتبابعة، وما فيهم عند العلا صغير، وصغير أبناء الكبار

كبار، نجوم الأرض، (وذرية بعضها من بعض) (٢) والخلف الصالح المحض، وهم في الدنيا والآخرة فرسان القوة والتقوى في يوم الحرب ويوم العرض.

ومنها في ذم ماء دمشق ووخها: عرف المملوك من الكتب الواصلة التياث جسم المولى الأمير عثمان، والحقير مما ينال ذلك الجسم الكريم توقد في قلوب الأولياء الأثر العظيم، وقليل قذاة العين غير قليل، وماذا يقول في بلد لو صححت الحمية من مائة، لكانت من أكبر أسباب صحة المحتمى، وشفائه، فإنه ماء يؤكل، وبقية المياه تشرب، ويجد وخامته من ينصف ولا يتعصب.

ومنها: وأما المأمور به في معنى المنكرات الظاهرة وإزالة أسبابها، وإغلاق أبوابها، وتحصين كل مبتوتة من عصمه، وتطهير كل موسومة بوصمه، فالله يثيب المولى ثواب من غضب ليرضيه بغضبه، وحمل الخلق على منهاج شرعه وأدبه.

ثم أورد العماد فصولا كثيرة، وقال: إنما أودرت الفصول الفاضلية لأن في كل فصل منها ذكر سيرة، وفوائد كثيرة.

فصل

قال العماد: ومن جملة ما أغفلته ذكر ما أسقطه السلطان من مكس مكة شرفها الله تعالى عن الحاج، وتعويض أميرها بجلاب غلة إليه في كل سنة، وتعيين ضياع موقوفة عليها بالأعمال المصرية.

كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حاج المغرب على عدد الرؤوس ما ينسب إلى الضرائب والمكوس، فإذا دخل حاج حبس حتى يؤدي مكسه، ويفك بما يطلبونه منه نفسه، وإذا كان فقيرا لا يملك، فهو يجبس ولا يترك وتفوته الوقفة بعرفة ولا يدرك، فقال السلطان: نريد أن نعوض أمير مكة عن هذا المكس بما، ونغنيه عنه بنوال، وإن أعطيناه ضياعا استوعبها، ارتفاعا وانخفاضاً، فلا يكون لأهل مكة فيها نصيب، فقرر معه أن يحمل إليه في كل سنة مبلغ ثمانية آلاف أردب قمح إلى ساحل جده، فإن الأمير بها يحتاج إلى بيعها للإنتفاع بأثمانها، ويثق أهل الحرمين من الدولة بدوام إحسانها، وقرر أيضا حمل الغلات إلى المجاورين بالحرمين والفقراء، ومن هناك من الشرفاء، ووقف لها وقوفا، وخلد بها إلى قيام الساعة معروفا، فسقطت المكوس، واغتبطت النفوس، وزاد البشر وزال العبوس، واستمرت النعمى، وزال البؤس، وذلك في سنة اثنتين وسبعين.

ومن كلام الفاضل في ذلك في بعض كتبه: من البشائر التي لاعهد لحاج ديار مصر بمثلها، ولاعهد لملك من ملوك الديار المصرية بالحصول على فخرها وأجرها، انقطاع المكاسين عن جدة، وعن بقية السواحل، ويكفي أن تمام هذه المثوبة موجب الاستطاعة مقيم بحجة الله في الحج، فقد كانت الفتيا على سقوطه مع وجود الحامل، وما أكثر ما أجرى الله للخلائق على يد المولى من الأرزاق، التي تفضل عن الاستحقاق، وما أولاه بأن يتوخى بالمعروف مكانه من هذين الحرمين الشريفين المهجورين من إسعاف أهل الاقتدار، والمحروم من قدر فيهما على خير

فأضاع فرضيته، بترك البدار، وغير خاف عن مولانا همة الفرنج بالقدس برا وبحرا، ومركبا وظهرا، وسلما وحربا، وبعدا وقربا، وتوافيهم على حماسه، وهو أنف في وجه الاسلام، ومسارعتهم إلى نصرة أهليه بالأرواح والأموال على مر الأيام، ومعاذ الله أن يستبصروا في الضلال، ونصرف نحن عن الحق، ويضيق بنا في التوسعة على أهله سعة المجال، والمملوك في مستهل رجب بمشيئة الله معول على السفر إلى الحجاز لقضاء الفريضة قولاً وفعلاً، والسائرون في هذه السنة بطمعة وقفة الجمعة، وبفسحة وضع المكس خلق لا يحصى، والمولى شريك في أجرهم، فليهنه إن الملوكة عمرت بيوتها فخربت، وإن المولى عمر بيت الله، فمن كرمه سبحانه أن يعمر بيت المولى، وما أشد خجل الملوكة من النبي صلى الله عليه وسلم في التقصير في قوت جيرانه في هذه السنة، وما هكذا أوصى ابن اللطفي ولكن للغائب حجته.

قلت: وفي هذه المكرمة التي فعلها صلاح الدين رحمه الله بالحاج يقول الشيخ الفاضل أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الاندلسي، من قصيدة له يمدح بها صلاح الدين وستأتي فيما بعد، أخبرني بها ثقة نقلها من خطه:

رفعت مغارم مكس الحجا
زبانعامك الشامل الغامر
وأمنت أكناف تلك البلا
دفعان السبيل على العابر
وسحب أياديك فياضة
على وارد وعلى صادر
فكم لك بالشرق من حامد
وكم لك بالغرب من شاكر

وكم بالدعاء لكم كل عا
م بمكة ممن أعلن جاهر
وقد بقيت حسبة في فلا
ن وتلك الذخيرة للداخر
يعنف حجج بيت الاله
ويسطو بهم سطوة الجابر
ويكشف عما بأيديهم
وناهيك من موقف صاغر
وقد وقفوا بعد ما كشفوا
كأنهم في يد الأسر
ويلزمهم حلف اباطلا
وعقبى اليمين على الفاخر
وإن عرضت بينهم حرمة
فليس لها عنه من ساتر
أليس على حرم المسلمي
من بتلك المشاهد من غائر
ألا حاضر نافع زجره
في اذلة الشاهد الحاضر
ألا ناصح مبلغ نصحه
إلى الملك الناصر الظافر
ظلم تضم من مال الزكا
ة لقد تعست صفقة الخاسر
يسر الخيانة في باطن
ويبيدي النصيحة في الظاهر
فأوقع به حادثا إنه
يقبح أحد وثرة الذاكر
فما للمناكير من زاجر
سواك وبالعرف من أمر

وحاشاك إن لم تنزل رسمها
فمالك في الناس من عاذر
ورفعك أمثالها موسع
رداء فخجارك للناس
وأثارك الغر تبقى لها
وتلك المآثر للاثر
نذرت النصيحة في حقكم
وحق الوفاء على الناذر
وحبك أنطقني بالقري
ض وما ابتغي صلة الشاعر
ولا كان فيما مضى مكسبي
وبئس البضاعة للتاجر
إذا الشعر صار شعار الفتى
بها ازمن ذكرك العاطر

قال العماد: وفي المحرم من هذه السنة توفي الحكيم مهذب الدين أبو الحسن علي بن عيسى، المعروف بابن النقاش البغدادي بدمشق، وكان كنعته مهذبا، ومن الملوك لتفرده بفضله مقربا، وهو مبرز في فنه، حتى أن من شذا شيئا من الطب تنجح بأنه قرأ عليه، وتردد لاستفادته إليه، وقد راضته العلوم الرياضية، وأحكمت أخلاقه المعارف الحكمية

وفي الثاني عشر من جمادى الأولى توفي الأمير نجم الدين بن مصال بمصر، وجاءنا نعيه ونحن بحمص، فجاوز اغتمام السلطان برزئه حده، وجلس في بيت الخشب مستوحشا وحده، وقال: لا يخلف الدهر لي صديقا مثله بعده، وأجرى ما كان له جميعه لولده، وحفظ عهده، وكان لجماعة من الأعيان والشعراء والأمثال والأدباء بعنايته ووساطته من السلطان رزق أبقاه عليهم، كأنه عليه مستحق.

وفي العشر الأول من ربيع الآخر أغارت طائفة من الفرنج على بلد حماة، فخرج إليها متولي عسكر حماة الأمير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين صاحب حصن بوقبيس فأسر المقدمين، وسفك بسيفه دم الباقين، وجاء إلى الخدمة السلطانية بظاهر حمص، وساق معه الأسارى، فأمر السلطان بضرب أعناقهم، وأن يتولى ذلك أهل التقى والدين من الحاضرين، فتقدم إمامه الضياء الطبري وضرب عنق بعضهم، وتلاه الشيخ سليمان المغربي ثم الأمير ايطغان بن ياروق، واستدعى العماد وأمر بذلك، فلم يفعل وطلب أن يملكه السلطان منهم صغيرا فعوض عنه.

ثم رحل السلطان على طريق الزراعة إلى بعلبك فنازلها محاصرا من غير قتال، فطال أمرها ولم يسمح بها صاحبها، ودخل فصل الشتاء، فرحل السلطان عنها إلى دمشق، ووكل بها من يحصرها بالمنع من الخروج والدخول من غير قتال، وهم جماعة مع طغرل الجاندار، ودخل إلى دمشق في العشر الأواخر من رجب، وتمادى الأمر إلى أن رضي ابن المقدم بحصن بعرين وأعماله، وبيلد كفر طاب وأعيان نواحي وقرى من بلد المعرة، وسلم بتسليم بعلبك من المضرة والمعرة، وكان الذي أخذه أكثر وأنفع مما خلاه، وماخطر له ولاترجاه ولاتمناه.

فصل

كالذي قبله في حوادث متفرقة

قال العماد: كتب النواب بدمشق إلى السلطان أن الأموال ضائعة، وأن الأطماع فيها رائحة، وأن في أرباب الصدقات أغنياء لا يستحقونها، وما لهم رقة من الله يتقونها، وإن أرباب العنايات استوعبوها وما استوجبوها، وإن المصلحة تقتضي أفراد جهات لما تسنح من مهمات، وكانت الصدقات مبلغ أحد عشر ألف دينار، فقال لي: اكتب عليها جميعها بالإمضاء، ولا تكدر على ذوي الآمال موارد العطاء، فقلت: أما أتلو عليك الأسماء؟ فقال: لا بل نزهني عن هذه الأشياء، فبقيت تلك الرسوم دارة، والآمال بها سارة.

قال: وفي شعبان من هذه السنة توفي متولى المقياس بمصر، ففوض السلطان منصبه إلى أخيه، قال: وهذا المقياس موضع مبني من عهد خلفاء بني العباس، ليعرف زيادة الماء ونقصانه بالمقياس، وهناك عمود في الماء مقسوم بالأذرع، والأذرع مقسومة بالأصابع في مسجد ينوب في الجزيرة عن الجامع، تصلى فيه الجماعات والجمع ويتولاه من العهد القديم متول من ولد أبي الرداد، ممن هو معروف بالنزاهة والعلم والسداد، وله راتب دار ورسم وقرار.

قلت: بلغني أن أبا الرداد هذا كان معلما من أهل الصدق والصلاح، ربه جعفر المتوكل على الله في ولاية المقياس، وبقي من بعده على ولده.

وقرأت في تاريخ الغرباء الذين قدموا مصر لأبي سعيد بن يونس، قال: عبد الله بن عبد السلام بن الرداد العمي، بصري قدم مصر

وحدث بها، وكان قد جعل على قياسية النيل، توفي بمصر لسبع بقين من رجب سنة ست وستين ومائتين، وذكره أبو سعيد في أهل مصر أيضا، وقال فيه: ولد هو وأبوه بمصر.

قال ابن الأثير: وفي سنة أربع وسبعين وخمسةائة اشتد الغلاء وعم أكثر البلاد العراق ومصر وديار بكر، وديار الجزيرة، والشام وغير ذلك من البلاد، ودام إلى أن انقضى سنة خمس وسبعين، وخرج الناس في البلاد يستسقون فلم يسقوا، ثم إن الله تعالى رحم عباده، ولطف بهم، وأنزل الغيث، وأرخص الأسعار، ومن عجيب ما رأيت تلك السنة أنني كنت في الجزيرة، فأقبل انسان تركماني قد أثر فيه الجوع، وكأنه قد أخرج من قبر، فبكى وشكا الجوع، فأرسلت من اشترى له خبزا فتأخر إحضاره لعدمه، وهو يبكي ويتمرغ على الأرض فتغيمت السماء وجاءت نقط مطر متفرقة، وضج الناس، ثم جاء الخبز فأكل التركماني، وأخذ الباقي معه ومشى، واشتد المطر، ودام من تلك الساعة، فرخصت الأسعار ووجدت الأقوات بعد أن كانت معدومة، ثم تعقب الغلاء وباء شديد كثير، وكان مرض الناس شيئا واحدا وهو برسام فمات فيه من كل بلد أمم لا يحصون كثرة، ولقي الناس منه ما أعجزهم حمله، ثم إن الله تعالى رفعه في سنة ست وسبعين وخمسةائة، وقد ضعضع العالم.

فصل

في عمالة حصن بيت الأحزان ووقعة الهنفري

قال العماد: وفي مدة مقام السلطان على بعلبك واشتغاله بأمرها، انتهز الفرنج الفرصة فبنوا حصنا على مخاضة بيت الأحزان، وبينه وبين دمشق مسافة يوم، وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم، وقيل للسلطان متى أحكم هذا الحصن، تحكم من الثغر الاسلامي الوهن، وغلق الرهن، فيقول إذا أتموه نزلنا عليه وهدمناه إلى الأساس، وجعلناه من الرسوم الأدراس، فكان الأمر بعد سنة على ماجرى لفظه من عدة حسنه، فلما انقضى أمر بعلبك وصل السلطان دمشق فأقام بها وأمر الحصن من همه، وقصد حصاره من عزمه، وكان العام مجدبا والجذب عاما، وقيل للسلطان ليس هذه سنة جهاد فإن استمنحوك السلامة فامنح، (وإن جنحوا للسلم فاجنح) (٣) فقال السلطان: إن الله أمر بالجهاد، وكفل بالرزق، فأمره واجب الامثال، ووعده ضامن الصدق، فنأتي بما كلفنا لنفوز بما كلفه، ومن أغفل أمره أغفله.

قال: ووصل في هذه السنة رسول دار الخلافة، وهو الخادم فاضل، وكان من أفضل الخدم، ندب بأفضل الخدم، وفرح السلطان به واستصحبه معه إلى الغزاة، ووقف به على الحصن الذي استجده الفرنج بالمشهد اليعقوبي، ونخطف من حوله من الفرنج جماعة، وأقام على أهل المعصية بجهاده الطاعة، وعاد وقد عرف ما يعزم عليه من أمر فتحه.

قال: وفي مستهل ذي القعدة، كانت وقعة هنفري ومقتله، وذلك أن الأخبار تواترت بأن الفرنج قد تجمعوا في جمع عظيم، وأنهم عازمون على الخروج على المسلمين على غرة، فقدم السلطان ابن أخيه فرخشاه على عساكر دمشق، وأمره أن يخرج إلى الثغر ففعل، وأمره إن علم بخروجهم

أن ينفذ إلى السلطان يعلمه بذلك، ولا يلقاهم بل يتركهم حتى يتوسطوا البلاد، فلم تشعر طلائع فرخشاه إلا وقد خالطوهم على غرة، فوقعت الواقعة، فقتل صاحب الناصرة وجماعة من مقدميهم، وطلب الملك فطرح حصانه، وجرح فرسانه، وجاء الهنفري ليحميه، فوقعت فيه جراحات أحدها نشابة وقعت في مارنه فجدعته ونفذت إلى فيه ومرت بضره فقلعته، وخرجت من تحت فكه، وقتلت عدة من الرجالة والخيالة، ورجعت الفرنج بخزي عظيم، ليس فيهم إلا مجروح، وكل يوم ترد البشرى بموت مقدم من جراحة أصابته.

ووردت بطاقة الطير في ذلك اليوم إلى دمشق فخرج السلطان فما وصل إلى الكسوة إلا ورؤوسهم وأسراؤهم قد جيء بها، فرجع مظفرا منصورا، وذلت الفرنج بعدها، وانكسرت بموت الهنفري، ثم سار السلطان إلى الحصن الذي بنوه فأزعجهم وذعرهم، وعاد على عزم العود إليه.

قال: ثم وجه السلطان أخاه الأكبر تورانشاه من الشام إلى مصر بمن ضعف من الأجناد لأجل محل البلاد، فرتب في بعلبك نوابه، وودعه السلطان من مرج الصفر وذلك في أواخر ذي القعدة، ومر على بصرى، ومنها إلى الأزرق، ومنه إلى الجفر إلى إيلة إلى صدره، ووصل معه خلق كثير من التجار والرجال والنساء والأطفال.

فصل

قال العماد: وسافر الفاضل إلى الحج في هذه السنة، وركب البحر، فكتبت إليه كتابا فيه: طوبى للحجر والحجون من ذي الحجر والحجى، منيل الجدا ومنير الدجى، ولندي الكعبة من كعب الندى، وللهدايا المشعرات من مشعر الهدى، وللمقام الكريم من مقام الكريم، ومن حاطم فقار الفقر للحطيم، ومتى رثي هرم في الحرم وحاتم مائح زمزم ومتى ركب البحر البحر، وسلك البر البر لقد عاد قس إلى عكاظة، وعاد قيس بحفاظه، وياعجبا لكعبة يقصدها كعبة الفضل والأفضال، ولقبة يستقبلها قبة القبول والإقبال.

قلت: ومدحه أبو الحسن بن الذروي عند عوده من الحج بقصيدة حسنة منها:

علم البحر أنك الخلق وافا
فأسمى حشاه يخفق رعبا
وغداده ليديه حقيرا
أذرى الدر منك ينشأ سحبا
ولو احتاز قطره منك يا بحر
ر لأضحى أجابه الملاح عذبا
هائج لم يزل دعاؤك حتى
هون الله منه ما كان صعبا
ولقد نأما إذ ركبت وللر
يح هبوب وحيث أرسيت هبا
جذام اصنعت من جيد
عاد جذب الحجاز منهن خصبا
رمت كتما نها فداعت وهل يق
در غيث يخفى عن الأرض سكبنا
قد رأت منك كعبة الله لما
جنتها حاتم وإن شئت كعبنا

بل رأى منك بيتيه بيت مجد
أحرم الجود حوله ثم لبى
وزهت زمزم بشربك منها
وعجيب ان يظهر الماء عجبا
وتوجهت للمدينة عن مك
ة لما تشاء وكافيك حسبا
وأيتت الشام تلو فتوح
سار شرقا به الهناء وغربا
ان تكن غبت عنه والله يبق
ك لامثالها فما غبت قلبا
سرت والرأي فيه منك مقيم
وبعث الدعاء في الليل كتبا

وقد وقفت على الرقعة التي كتبها القاضي الفاضل رحمه الله بخطه
إلى السلطان يلتمس منه الإذن في سفر الحج فأحببت نقلها هنا، وما كتب
السلطان رحمه الله عليها، وما كتب بسببها إلى بعض نوابه، نقلت من
خط الفاضل رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب المملوك هذه الرقعة بعد أن استخار الله سبحانه من مستهل
رجب في أكثر لياليه وإلى آخر هذه الساعة وهو ينهي أنه قد شارف
الأربعين وما يدري لعلها عقبه اللقاء، وفرض الله في الحج قد تعين،
ووعد المولى به قد سبق عند إيلة، ومدة الغيبة قصيرة والنائب ينفذ
ما يحتاج إليه في السفر والحضر، والثقة به حاصلة في المرادين من الكاتب
وهما: الكتبان والمعرفة، وحظ المولى في حجه ولله أضعاف حظه في مقامه
لأنه إن كان ينفع بها في الدنيا فهو ينفع هناك في الآخرة، وإن لم يكن
أهلا لأن يستجاب منه فالله أهل لأن يجيب في المولى والمملوك، فما ثقل
قط في سؤال، وليس لأن المولى لا يقضيها، ولكن لأنه يغنيه عن السؤال

فيها، وهذه حاجة الدنيا والآخرة وبعدها ينشد:
متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة
لنفسى الا قد قضيت قضاها

وما أراد المملوك أن يستشفع بمن يشارك المولى في الأجر، وما يريد إلا
دستورا عن نفس طيبة ورضى ظاهر وباطن ولا يريد خلاف الغرض، فما
يفي له بقضاء المفترض، والله المعين برحمته.

الحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وسلامه

وعلى رأس الرقعة في سطر البسملة بخط السلطان رحمه الله
ماصورته: على خيرة الله تعالى، ياليتني كنت معكم فأفوز فوزا عظيما.

نقلته من خطه، ونقلت من خط بعض الكتاب مانقله من خط
السلطان رحمه الله إلى بعض النواب:

فصل من كتاب كريم بالخط العالي الناصري أعلاه الله ورد بتاريخ
السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة أربع وسبعين وخمسةائة.

وصلني كتاب القاضي الفاضل، وهو يذكر أنه مصمم على الحج، الله
يجعله مبارك ميمون، ولكن لأفسح له فيه إلا بعد ثنتين: واحدة أنه
لا يركب بحرا يسير من العسكر إلى إيلة، ومنها يتوجه ويقيم العسكر
على إيلة ليلة وعلى إرم ليلة، ودون إرم ليلة، وقاطع إرم ليلة، فيكون هو قد
بعد وما يبقى عليه خوف إن شاء الله تعالى، وثانية تأخذ يده وتحلفه
برأسي أنه لا يجاور، وثالثة تعطيه من مال الجوالي ثلاثة آلاف دينار، وتقول
له لا بد أن يخرج هذا عني لاعنك في المجاورين بمكة والمدينة وفي
أهلها، هذا أمر لا بد منه فإن الناس لا بد لهم من الطلب، ولا بد لك من
العطاء وإن قال إن الشيء قليل فأنت تقرضني مثل هذا المبلغ من

مالك، وتعطيه إياه فلا بد وإلا فلا إذن له في الرواح إلى الحج إلا على هذه الشروط التي قد شرطتها، وأما مجيئه فيجيء إلى الشام فأنا ما بقي لي دار إلا هي حتى يقضي الله بيننا وبين الفرنج (وهو خير الحاكمين) (٤).

وكتب الفاضل إلى بعض مشايخ مكة بعد رجوعه: سقى الله الحجاز، وحيا كعبته، وياطول ما ترشقني سهام الشوق الذي أصبح الذكر جعبته، أما على تلك المواقف وتبا لمن رضي أن يكون مع الخوالف، فرعيا ونعمى وحسنة وحسنى لمجاوري ذاك الحرم، ولعامري أيامه التي هي الأيام لأيام ذي سلم، فيالهف الصدور، وطول ظمأها إلى ورود ماء زمزمها، وطوي لمن استضاء في مضال الظلم بعلمه، ومهما نسيت فلا أنسى برد الكبد بحر صيفها، وموسم الأنس بثلاث مناهم وخيفها:

أها عليها ليال ما تركزن لنا

إلا الأسى وعلالات من الحلم

عسى الرياح إذا سارت مبلغة

توفي فقد غدر الأجاب بالذمم

ثم قال: فأما الطريق المباركة فقد جرى فيها خطوب وشؤون، وأحاديث كلها شجون، وكانت العقبي إلى سلامة، ولما قاربنا الكرك نهض العدو، فلم يمكن الرجعة ولا التعريج جانبا، ثم من الله تعالى بانجلاء النوبة، ووصلنا إلى بلاد السلطان ولقينا ذلك الوجه، فلا عدمننا بشره، وذلك الفضل فلا فارقت أعيننا فجره، ووجدناه في الغزاة جاهدا، وللعو مجاهدا، وأوقاته مستغرقة وعزماته محققة.

فصل

فيما فعل مع الفرنج في باقي هذه السنة وأول الأخرى ووقعة

مرج عيون

قال ابن أبي طي: كانت الفرنج قد عمرت بيت الأحزان، وكان على المسلمين منه ضرر عظيم، فراسل السلطان الفرنج في هدمه فأجابوا إنه لاسبيل إلى هدمه إلا ان تعطينا ماغرمننا عليه، فبذل لهم السلطان ستين ألف دينار فامتنعوا فزادهم إلى أن بلغ مائة ألف دينار، وكان هذا الحصن للداوية، وكانوا يقوون من فيه بالأموال والنفقات لقطع الطرقات على قوافل المسلمين، فأشار تقي الدين على السلطان ببذل هذا المال لأجناد المسلمين ويخرج بهم إلى الحصن ويهدمه، ففعل ذلك كما سنذكره.

قال العماد: ولما ودع السلطان أخاه ورجع أغار في طريقه على بلاد الفرنج وقصد الحصن الذي بنوه ورجع بالأسرى والغنائم وخيم السلطان بمروج الشعراء، ثم انتقل إلى بانياس، وبلغت الخيم إلى حدود بلاد الكفرة، وأضرم عليهم لهب النيران المستعرة، وكان كل يوم يركب بحجة الصيد، وينزل على النهر، ويجرد فرسان الجلاد والقهر، ويسير قبائل العرب إلى بلد صيدا وبيروت حتى يحصدوا غلات العدو، وما يبرح مكانه حتى يعودوا بجماهم وأحمالها موثقة بأنقالها، حتى جف زرع الكفار.

قال: وفي هذه السنة اقتضى رأي الفرنج أن يربعوا المسلمين في كل ناحية خوفا من اجتماعهم على جهة واحدة، فغدر ابرنس أنطاكية، وأغار على شيزر، وغدر القمص بطرابلس بجعاة من التركمان بعد الأمان، فرتب السلطان ابن أخيه تقي الدين عمر في ثغر حماة ومعه شمس الدين

ابن المقدم وسيف الدين علي المشطوب، ورتب ابن عمه ناصر الدين في
ثغر حمص في مقابلة القمص، وكتب السلطان إلى أخيه العادل وهو نائبه
بمصر أن ينتخب له من عسكر مصر ألفا وخمسمائة فارس يتقوى بهم
مع عسكر الشام على العدو.

ثم دخلت

سنة خمس وسبعين

والسلطان نازل على تل القاضي بيانياس، فأجمع رأيهم مع بقية المسلمين على أن يقتحموا على الكفار ديارهم ويستوعبوا ما بقي في أيديهم من الغلات في يوم واحد ثم يرجعوا، فرحلوا صوب البقاع فنهضوا تلك الليلة وهي ليلة الأحد ثاني المحرم، فلما أصبح السلطان جاءه الخبر بأن الفرنج قد خرجت، فالتقاهم وأنزل الله نصره على المسلمين وأسر فرسانهم وشجعانهم، وانهمت رجالتهم في أول اللقاء، فكان من جملة الأسرى مقدم الداوية، ومقدم الاسبتارية، وصاحب طبرية، وأخو صاحب جبيل، وابن القمصية، وابن بارزان صاحب الرملة، وصاحب جينين، وقسطلان يافا، وابن صاحب مرقية، وعدة كثيرة من خيالة القدس وعكا من البارونية وغيرهم من المقدمين الأكابر، مازاد على مائتين ونيّف وسبعين سوى غيرهم، ثم قدمت الأسارى وهم يتهادون كأنهم سكارى.

قال العماد: وأنا جالس بقرب السلطان استعرضهم بقلمي، ومن أطف الله تعالى أنا وخواصه الحاضرين لم نزد على عشرين، والأسرى قد أنافوا على سبعين، وقد أنزل الله علينا السكينة، وخصهم بالذلة المستكينة، وطلع الصباح، ورفع المصباح، وقمنا وصلينا بالوضوء الذي صلينا به العشاء، ثم عرض الباقون من الأسرى، ثم نقلوا إلى دمشق فأما ابن بارزان فإنه بعد سنة بذل في نفسه مائة وخمسين ألف دينار صورية وإطلاق ألف أسير من المسلمين، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى من نوبة الرملة عندهم من المأسورين، فالتزم ادراكه وأن يؤدي من قطعة المذكور القطيعة التي قرر بها فكاهه، وأما ابن القمصية فإنه استفكته أمه بخمسة وخمسين ألفا من الدنانير الصورية، وأما أود مقدم الداوية فإنه

انتقل من سجنه إلى سجين، فطلبت جيفته فأخذ باطلاق أسير من مقدمي المؤمنين، وطال أسر الباقيين فمنهم من هلك وهو عان ومنهم من خرج بقطيعة وأمان، وهذه هي وقعة مرج عيون، وكان العدو في عشرة آلاف مقاتل وانهمز ملكهم مجروحا، وكان لعز الدين فرخشاه في هذه الوقعة بلاء حسن، حكى حسام الدين تميرك بن يونس وكان مع عز الدين قال: كنا في أقل من ثلاثين فارسا قد تقدمنا العسكر، فشهدنا خيل الفرنج في ستائة فارس واقفين على جبل وبيننا وبينهم الماء، فأشار عز الدين بأن نعبّر النهر إليهم، ففعلنا ولحقنا عسكر السلطان فهزمناهم، ومن أحسن ما اتفق أن في اليوم الذي كسرت فيه الفرنج بمرج عيون ظفر الأسطول المصري ببطسة كبيرة فاستولى عليها وعلى أخرى وعاد إلى الثغر مستصحباً ألف رأس من السبي، فما أقرب ما بين النصرين في المصريين، وما أعذب عذاب الفتنتين وتجريعهما الأمرين الأمريين، لقد عم النصر، وتساوى فيه البر والبحر.

ومما مدح به السلطان في هذا الفتح مدحة سيرها من مصر إليه فخر الكتاب أبو علي الحسن بن علي العراقي الجويني أولها:

لرب السماء خير معين

وكفيل بما تحب ضمير

فله الحمد أي نصر عزيز

قد جابنا به وفتح مبير

أدرك الثار حين نازله المغر

وارحيف الكفار ليث العرين

المهام الغضنفر الملك النبا

صر مولى الورى صلاح الدين

يا مليكاً أضحى الزمان يناجي

به بلفظ المذل المسكين

قد فت أهلها الحصون إلى بأ

سك حتى عوضتهم بالسجون

وأراهم رب السماء بأسيا
فكـمـالم يجبل لهم في ظنون
لك قلب عند اللقاء مكين
ولـهـمـن تقاه ألف كمين
يامليكا يلقى الحروب بحول اللـ
هـمـستعصما وصـدق اليقين
إن هذا الفتح المين شفاء
لـصـدور وقـرة لعيون
هـو يـوم أضحى كيـوم حنين
سـهـل الله نصره في الخزون

قال العماد: وكان تقي الدين غائبا عن هذه الواقعة، واشتغل عنها
بغيرها، وذلك أن سلطان الروم قليج أرسلان طلب حصن رعبان، وادعى
أنه من بلاده، وإنما أخذه منه نور الدين رحمه الله على خلاف مراده، وأن
الملك الصالح ولده قد أنعم به عليه، ورضي بعوده إليه، فلم يفعل
السلطان وكان هذا الحصن مع ابن المقدم، فأرسل قليج أرسلان عسكريا
مجمعا في عشرين ألفا لحصار الحصن فلقبهم تقي الدين، ومعه سيف
الدين علي المشطوب في ألف مقاتل، فهزمهم.

قال: ولم يزل تقي الدين يدل بهذه النصر، فإنه هزم بأحاد ألوف،
وأرغم بأعداد من الأعداء أنوفا.

وقال ابن أبي طي: واتصل بالسلطان أن قليج أرسلان قد طمع في
أخذ رعبان وكيسون، فلما دخل دمشق وصله رسوله يطلبها منه، ويدعي
أن نور الدين بن زنكي اغتصبها منه، وأن الملك الصالح قد أنعم عليه
بها، فاغتاظ السلطان وزجر الرسول وتوعد صاحبه، فعاد الرسول وأخبر
قليج أرسلانه فغضب وسير عسكريا إلى رعبان، فحاصرها وسمع
السلطان، فندب تقي الدين عمر في ثمانمائة فارس، فسار فلما قارب

رعيان أخذ معه جماعة من أصحابه مقدار مائتي فارس، وتقدم عسكره وسار حتى أشرف على عسكر قليج أرسلان ليلاً فرأهم قد سدوا الفضاء وهم قارون آمنون وادعون، فقال تقي الدين لأصحابه: هؤلاء على ماترون من الطمأنينة والأمن والغفلة، وقد رأيت أن نحمل الساعة فيهم بعد أن نتفرق في جوانب عسكرهم ونصيح فيهم فإنهم لا يثبتون لنا، فأجابوه إلى ذلك فأنفذ واحداً من أصحابه إلى باقي عسكره وأمرهم أن يتفرقوا أطلاباً، وأن يجعل في كل طلب قطعة من الكوسات والبوقات، فإذا سمعوا الضجة ضربوا بكوساتهم وبوقاتهم، وجدوا في السير حتى يلحقوا به، ففعلوا ما أمرهم، ثم أنه حمل في عسكر قليج أرسلان، وصرخ أصحابه في جوانبه، وكان عدة عسكر قليج أرسلان ثلاثة آلاف فارس، فلما سمعوا الضجة، وحس الكوسات والبوقات وشدة وقع حوافر الخيل وجلبة الرجال واصطكاك أجرام الحديد هالهم ذلك، وظنوا أن قد فوجئوا بعالم عظيم، فلم يكن لهم إلا أن جالوا في كواثب خيولهم عرياً وطلبوا النجاة، وأخذتهم السيوف، فتركوا خيامهم وأثقالهم بحالها، وأكثر تقي الدين فيهم القتل والأسر، وحصل على جميع ما تركوه، فلما أصبح جمع المأسورين ومن عليهم بأموالهم وكراعهم وسرحهم إلى بلادهم.

قال: وقيل إن الخبر بهذه الكسرة وصل إلى السلطان في اليوم الذي كسر فيه السلطان الفرنج على مرج عيون، فتوافت البشارتان إلى البلاد.

قال: مدح ابن التعاويذي السلطان الملك الناصر بقصيدة أنفذها إليه من بغداد يذكر فيها وقعة مرج عيون يقول فيها:

كاد الأعداء أن يصيبك كيدها
لو لم تك يدك برأيها المأفون
تخفي عدوانها وراء بشاشة
فتشف عن نظر لها مشفون

دفنت حباتل مكرها فافرد دتها
تدوي بغيط صدرها المدفون
وعلمت ما أخفوا كأن قلوبهم
أفضت إليك بسرهما المخزون
كمناوواكم لك من كمين سعادة
في الغيب تظهروا من وراء كمين
فهوت نجوم سعودهم وقضى لهم
بالنحس طائرهم بمرج عيون

قلت: هكذا أنشده، وهو حسن وقد كشفته في نسخة من ديوان ابن
التعاويذي فوجدت آخر هذا البيت « طائر جدك الميمون » وأول القصيدة:

ان كان دينك في الصبابة ديني
فقف المطسى برملتسي يبرين

ثم قال بعد تمام الغزل:

ليت الضنين على المحب بوصله
لقن الساحة من صلاح الدين
ملك إذا علقته يد بدمامه
علقت بحبل في الحفاظ متين
قاد الجياد معاقلا وان اكتفى
بمعاقل من رأيه وحصون
سهرت جفون عداه خيفة ماجد
خلقت صوارمه بغير جفون
لو أن لليث الهزب رسطاه لم
يلجأ إلى غابله وعرين
أضحت دمشق وقد حلت بجوها
مأوى الطريد وموئل المسكين

لك عفة في قدرة وتواضع
في عزة وشراسمة في لين
وأريتنا بجميل صنعك ماروى الـ
— راوون عن أمم خلعت وقرون

قال ابن أبي طي: نزل السلطان على تل القاضي بانياس على المريج الذي يعرف بمريج عيون، وأنفذ في ثاني المحرم قطعة من عسكره مع عز الدين فرخشاه لشن الغارة على بلاد الفرنج، فلما أصبح ركب يستوكف أخبار فرخشاه فما هو إلا أن خرج من الخيم حتى رأى أغنام بانياس قد أقبلت من المراعي حاجة على وجوهها من الغياض والأودية، فقال: هذه غارة، فأمر بلبس السلاح والاستعداد للحرب، فوصل بعض الرعاة فأخبر أن الفرنج قد عبروا وصاروا قريبا منه على هيئة المتغفلة، فسار حتى أشرف على الفرنج، فإذا هم في ألف رمح، فأخذتهم السيوف والدبابيس حتى فرشت الأرض منهم، وألقى جماعة منهم سلاحهم وسلموا أنفسهم أسارى، ونجا ملك الفرنج هنفري هاربا، ويقال إنه وقع به فرسه فحمله أحد خيالاته على ظهره، ثم رجع السلطان إلى معسكره وسيفه يقطر دما وجلس لاستعراض الأسارى فذكر نحو ما سبق.

وفي كتاب الفاضل إلى صاحب له بمكة وقد سبق بعضه قال: «وجرت نوب منها قتل الهنفري لعنه الله وتما سبعين فارسا من كبار الخيالة، وطرح ملك الفرنج من على ظهر دابته وتحامله بأخر رمق مع بقية من نجا من خيالاته، ومنها نوبة وادي الحريق، وقد جمع الله العدو فارسه ورجله، ومنها نصر الله الذي ما كان قبله لملك من ملوك الأرض قتل ابن بارزان ومقدم الداوية، وابن صاحب طبرية، وأخو أسقف صور، وصاحب جييل، وأصحاب الحصون والقلاع، ومقطعوا الأقاليم والضياع، وحصل تحت اليد الناصرية أعلاها الله مائة وستون كلهم تشنى عليهم الخناصر وتقطر بهم العساكر، ومنها دخول العساكر إلى

عمل بيروت وصور وغارتها على غرة من أهلها، وقطع شجرة مثمرة من أصلها.

قال: وكانت الأساطيل المنصورة قد تضاعفت عدتها إلى أن بلغت ستين شينياً وعشرين طريدة، فسارت الشواني خاصة فدخلت البلاد الرومية، ودوخت السواحل الفرنجية، وأسرت ألف عالج أحضرتهم أسرى في قيد الأسار، وقتلت الرفاق الكبار، وغنمت من هذه الغزوة أقوام كانت أعينهم لاتعرف عين الدرهم ولاوجه الدينار».

فصل

في تخريب حصن بيت الأحزان وذلك في شهر ربيع الأول

قال العماد: جمع السلطان جموعا كثيرة من الخيالة والرجالة، فوصل إلى المخاضة يوم السبت تاسع عشر الشهر، والحصن مبني دونها من الغرب، فخيم منها بالقرب وضاق ذلك المرج عن العسكر، واحتاج إلى نصب ستائر لأجل المنجنيقات، فركب السلطان بكرة الأحد إلى ضياع صنف وكانت قلعة صنف يومئذ للداوية، وهو عش البلية، وأمر بقطع كرومها وحمل أخشابها، فأخذ كل ما احتاج إليه، ورجع بعد الظهر وزحفوا إلى الحصن بعد العصر، فما أمسى المساء إلا وهم قد استولوا على الباشورة وانتقلوا بكليتهم إليها، وباتوا طول الليل يحرسون، وخافوا ان يفتح الفرنج الأبواب ويغيروا عليهم على غرة، وإذا بالفرنج قد أوقدوا خلف كل باب نارا ليأمنوا من المسلمين اغترارا، فاطمأن المسلمون وقالوا: ما بقي إلا نقب البرج ففرقه السلطان على الأمراء، فأخذ فرخشاه الجانب القبلي، وأخذ السلطان الجانب الشمالي، وقصد ناصر الدين بن شيركوه بقربه نقبا، وكذلك تقي الدين، وكل كبير في الدولة جعل له قسما، وكان البرج محكم البناء فصعب نقبه لكن ما انقضى يوم الأحد إلا وقد تم نقب السلطان، وعلق وحشي بالحطب ليلة الاثنين وحرق، وكان النقب في طول ثلاثين ذراعا في عرض ثلاثة أذرع، وكان عرض السور تسعة أذرع، فما تأثر بذلك، فاحتاج السلطان صبيحة يوم الاثنين إلى إطفاء النيران ليتم نقبه، وقال: من جاء بقربة ماء فله دينار، قال العماد: فرأيت الناس للقرب حاملين، ولأوعية الماء ناقلين، حتى أغرقوا تلك الثقوب، فخدمت فعاد نقابوها وقد بردت فحرقوه وعمقوه وفتحوه وفتحوه، وشقوا حجره وفلقوه، ثم حشوه وعلقوه واستظهروا فيه يوم الثلاثاء والأربعاء، ثم أحرقوه واشتد الحرص عليه لأن الخبر أتاهم بأن الفرنج قد اجتمعوا

بطبرية في جمع كثير ، فلما أصبح يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيع الأول ونعالى النهار انقض الجدار، وتباشره الأبرار، وكان الفرنج قد جمعوا وراء ذلك الواقع حطبا، فلما وقع الجدار دخلت الرياح فردت النار عليهم وأحرقت بيوتهم وطائفة منهم، فاجتمعوا إلى الجانب البعيد من النار وطلبوا الأمان، فلما خمدت النيران دخل الناس وقتلوا وأسروا وغنموا مائة ألف قطعة من الحديد من جميع أنواع الأسلحة، وشيئا كثيرا من الأقوات وغيرها، وجيء بالأسارى إلى السلطان فمن كان مرتدا أو راميا ضربت عنقه، وأكثر من أسر قتله في الطريق الغزاة المطوعة، وكان عدة الأسارى نحو سبعمائة، وخلص من الأسر أكثر من مائة مسلم، وسيرنا في الأسارى إلى دمشق، وأقام السلطان في منزلته حتى هدوا الحصن إلى الأساس، وطم جب ماء معين كانوا حفروه في وسطه، ورمى فيه القتلى، وكان عند السلطان رسول القمص معافى وهو يشاهد بلية أهل ملته، وقد كان السلطان بذل لهم في هدمه ستين ألف دينار فلم يفعلوا، فزادهم حتى بلغ مائة ألف فأبوا، وكان مدة المقام على الحصن في أيام فتحه وبعدها أربعة عشر يوما، وبعد ذلك سار السلطان إلى أعمال طبرية وصور وبيروت وغيرها فأغار عليها وأرجف قلوبهم بوصوله إليها، ورجع السلطان إلى دمشق يوم الأربعاء ومرض جماعة من ذلك الوباء لأن الحر كان شديدا، وأننت جيف القتلى، وطول السلطان المقام عليه بعد فتحه لأجل تميم هدمه، فتوفي أكثر من عشرة أمراء، وعاد المشهد اليعقوبي كما كان مزورا وبتكبير المسلمين وصلاتهم معمورا، وهنأ الشعراء السلطان بفتح هذا الحصن فمن ذلك ما أنشده نشو الدولة أحمد بن نقادة الدمشقي من جملة مدائحه:

هـلاك الفرنج أتى عاجلا
وقد آن تكسير صلبها
ولو لم يكن قد دنأحتفها
لما عمرت بيت احزانها

ولأبي الحسن علي بن محمد بن رستم الساعاتي الخراساني ثم الدمشقي
من قصيدة أولها:
بجـدك أعطاف القنـات تعطف
وطرف الأعـادي دون مجدك يطرف
شهاب هدى في ظلمة الشك ثاقب
وسيف هدى في طاعة الله مرهف
وقفت على حصن المخاض وإنه
لموقف حق لا يوازيه موقف
فلم يبدو وجه الأرض بل حال دونه
رجال كأساد الشرى وهي تزحف
وجرداء سلهوب ودرع مضاعف
وايـض هندي ولدن مثقف
ومارجعت أعلامك الصفر ساعة
إلى أن غدت أكبادها السود ترجف
كـبامن أعاليه صليب وبيعة
وشادبه دين حنيف ومصحف
صليبة عباد الصليب ومنزل الـ
نزال لقد غادرتـه وهو صفصف
أيسكن أوطان النيين عصبية
تمين لـدى أيانها وهي تخلف
نصحتكم والدين في النصيح واجب
ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف
ومن قصيدة لسعادة الضرير الحمصي:

حللت فكنت الألمي المسددا
وسرت فكنت الشمري المؤيدا
وقمت بأعباء المالك ناهضا
فأقعدت أعداء ولم تخش مقعدا

تعودت ضرب السيف والطعن بالقنا
وكل امرىء مغررى بما قد تعودا
نصرت الهدى لما تحاذل حـزبـه
فناداك حزب الله يا ناصر الهدى
غضبت لدين أنت حقاً صلاحه
فأرضيت لما ان غضبت محمدا
فيا يوسف الخير الذي في يمينه
من الخير ما قد غار فينا وأنجدا
وصلت لذي سلم وصلت لذي وغي
ففقت جميع الناس بالبأس والندى
وقدت إلى الأعداء جيش عرمرما
إذا أبرقت فيه الصوارم أرعدا
فلم تبق للطغيان شملاً مجمعا
ولم تبق لـلـايان شملاً مبـددا
فناهيك من جيش نهضت بعثه
فأقعدت لما ان نهضت به العدى
حملت ذبـالـا في ذوابل سمره
فلما دجى ليل العجاج توقدا
وزرت به الحصن الذي لو تحصنت
فوارسه بالنجم أوردته الردى
قصمت به صلب الصليب ورعته
وشهدتـه لما غفـا فتشهدا
هبيت إليه هبة يوسفية
تعيده بآء كل مكان جلمدا
وفض بما قد فضه من سهامه
نـواجد ثغر الهنـفـري وقـددا

قال: ومنهم الأمير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان العراقي
من أهل الحلة المزيدية، وكان حاضراً في نوبة ابن بارزان له من قصيدة

أولها:

هنيئاً صلاح الدين بالفتح والنصر
ونيل الأمانى الغر والفتكة البكر
وما حزت فيها من فخار ومن علا
وحسن ثنا يبقى إلى آخر الدهر
سموت لها بالمشرفة والقنا
سمو أبي لا ينمام على وتسر
وصلت بها جبل المفخر مثلما
قطعت بها يوم الوغى دابر الكفر
سلكت بياض الصبح وهو صوارم
وخضت بها سواد الليل وهو دم يجري
وقد عرف الأفرنج بأسك في الوغى
وجرعتهم منه أمر من الصبر
وظنوا ببناء الحصن صونا للمكهم
فأصبح بالشعراء منتهك الستر
فما قبضت منهم يد الغدر قطعت
أناملها إلا على صفقة الخسر
هي الفتكة الغراء لازلت قائما
بأمشالها في الدين في السر والجهر
وأصبح في أقصى خراسان ذكرها
وفي كل قلب منه جيش من الذعر
فلا ترض منهم بعدها بذل طاعة
فما خلقوا إلا على شيممة الغدر
وسروا ملك الأرض التي لو تركتها
لاغضت عيون المجد منها على أمر
في آل أيوب حويتهم مناقبا
بأخصها تعلقوا على الأنجم الزهر
إذا عد أرباب الفخار فأنتم
ذوو الفعلات الغر والنائل الغمر

وأنت الذي أصبحت بالبأس والتقوى
وبذل اللهى عالى السناء عطر الذكر

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد في وصف الحصن: « وقد عرض حائطه إلى أن زاد على عشرة أذرع وقطعت له عظام الحجارة كل فص منها من سبعة أذرع إلى مافوقها ومادونها، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر لا يستقر الحجر في مكانه، ولا يستقل في بنيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها، وفيها بين الحائطين حشو من الحجارة الصم المرغم بها أنوف الجبال الشم، وقد جعلت سقيته بالكلس الذي إذا أحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه، وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه، وأوعز إلى خصمه من الحديد بأن لا يتعرض لهدمه».

ومنه في وصف النار قال: « وبات الناس في ليلة الجمعة مطيفين بالحصن والنار به مطيفة، وعليه مشتملة، وعذبات ألسنتها على تاجه مسدله، ومن خلفه منسبلة، ونارهم قد أطفأها الله بتلك النار الواقدة، ومنعتهم قد أذهبها الله بتلك الأبرجة الساجدة، وبنفسج الظلماء قد استحال جلنارا، والشفق قد عم الليلة فلم يختص أصالا ولا أسحارا، ونفحاتها هميمة (وقودها الناس والحجارة)^(٦) والمنادي ينادي بلسان مصابها إياك أعني، فاسمعي يا جارة فوجت النار موالج يضيق منها الفكر ويعجز عنها الأبر، ونقلت النبأ من العين إلى الأثر، وقال الكفر) إنها لإحدى الكبرى^(الدفتره٣) وخولف المثل إن السعادة لتلحظ الحجر، وأغنى ضوعها لسان كل أمعة أن يسأل هذا وهذا ما الخبر، وقذفت بشرر كالجالات الصفر، وزفرت بغیظ تعفر له خدود الجبال الصعر، وتلحقها بالكتب العفر، وبات الليل والنهار يثله، وكلما أغمدته الخمود جعل الوقود يسله، إلى أن بدا الصباح كأنه منها إمتار الأنوار، وانشق الشرق ومن عصفرها صبغ الإزار، فحينئذ تقدم الخادم فاقتلع بيده الأحجار من

أسها، ومحا حروف البنيان من طرسها، وتبعه الجيش ورفاقه، وكافة من
اشتمل عليه نطقة».

وفي كتاب آخر: «وكان مبنيًا على تل، وفيه صهريج لما فتح المسلمون
الحصن رموا فيه ما يناهز ألف قتييل ودابة محرقة بالنار، فما سدت عرضته،
ولاملأت حفرته، وكان فيه نحو ألف زردية، والمقاتلة ثمانون فارسا
بغلماهم، وخمسة عشر مقدما للرجال، مع كل مقدم خمسون رجلا، هذا
إلى الصنّاع ما بين بناء ومعمار وحداد ونجار وصيقل وسيوفي، وصنّاع
أنواع الأسلحة، وكان به من أسرى المسلمين ما يزيد على مائة رجل،
نزعت القيود من أرجلهم، وجعلت في أرجل الفرنج، وكانت فيه أقوات
لعدة سنين، وأنواع اللحوم الطيبة والخبيثة فيها بلاغ ومتاع إلى حين، ولما
قوتل أول يوم هجم حوشه، وفيه جماعة من المقاتلة فضربت رقابهم،
وأخذت دوابهم، وفي الحال علقّت النقب على خمس جهات، وحشيت
بالنيران، وتأخر وقوع الجدران لفرط عرض البنيان، ولم تزل النار توقد، ثم
تخرج ثم تشعل ثم تحمد، إلى أن تمكنت النقب وحشيت بالأحطاب،
وأطلقت فيها النيران في يوم الخميس، فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت
الأبرجة فهي يومئذ واهية، وملك المسلمون الحصن بما فيه ومن فيه،
واشتعلت النيران في أرجائه ونواحيه، وكان الطاغية مقدم الحصن يشاهد
ما حل ببنيانه، وما نزل من البلاء بأصحابه وأعوانه، ولما وصلت النار إلى
جهته ألقى نفسه في خندق نار صابرا على حرها، ففي الحال نقلته هذه
النار إلى تلك النار، ولما أخذ أسارى الفرنج وهم عدة تزيد على سبعمائة
بعد المقتولين، وما يقصر عدتهم عن مثلها، توفرت الهمة على هدم هذا
الحصن وتعفية أثره، وإزالة ضرره، فألحقت أعاليه بقواعده، وصار أثرا
بعد عين في مشاهدة عين، هذا والفرنج مجتمعون في طبرية يشاهدون
الأمر عيانا، وينظرون إلى الحصن وقد ملء نيرانا، وارتفع دخانا، وسارت
العساكر إلى أعمال صيدا وبيروت وصور، فاثنت مغيرة فاستنارت كل

غامضة، ووصلت إلى كل ذخيرة، وصارت بلاد الفرنج لا يسكن فيها إلا قلعة أو مدينة، ولا يقيم فيها إلا من نفسه لشدة الخوف معتقلة في نفسه أو مشحونة».

ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان إلى وزير بغداد: «تأخر فلان لضرورات منها أمراض كانت قد عمت بها البلوى، وكثرت بها الشكوى، وكان أكثرها خاصا بالعائدين من العساكر من نوبة فتح الحصن، وكان خادما المجلس السامي ابن أخيه تفي الدين، وابن عمه ناصر الدين قد جهدا، وأثخنا وبلغا حد اليأس وامتحنا، وكادا يسقطان من ضمير المنى، فمن الله تعالى بالشفاء، وهذه البشرى بفتح الحصن، وإن كانت شريفة مواقعها، عامة منافعها، فقد تجددت بعدها بشارة طلعت بشارة راققة، وجاءت في مكان الرديف لأخرى لافرق بينها إلا أن تلك سابقة، وهذه لاحقة، وذلك أن الاسطول المصري غزا غزوة ثانية غير الأولى، وتوجه عن السواحل الاسلامية مرة أخرى من الله فيها منة أخرى، وكانت عدته في هذه السنة قد أضعفت وقويت، واستفرغت فيها عزائم بالجهاد واستقصيت، واحتلت به الرجال الذين يعملون في البحر، ويفتكون في البر، ومن هو معروف من المغاربة بغزو بلاد الكفر، فسارت على سوار هي كنانن إلا أنها تمرق مروق السهام، ورواكد هي مدائن إلا أنها تمر مر السحاب غير الجهام، فلا أعجب منها تسمى غربانا وتنشر من ضلوعها أجنحة الحمام، وتسمى جوارى وكم بشر مجربها من النصر بسلام، فطرقت في الأحد حادي عشر جمادى الأولى مينا عكا، وهي قسطنطينية الفرنج، ودار كفرهم أبدلها الله من الكفر اسلاما، وخلع عنها الشرك البالي وخلع عليها من التوحيد أعلاما، وكانت مفروسة فأصبحت مفترسة، وباتت جميع الفرنج محترسة، وغدت مترسة، فما هي إلا أن جذفت والجة على المينا، وفيه المراكب والبضائع فاستولت على عدة من المراكب تحطيا وتكسيرا، ونطاحا يقلقل، ولو كان ثيرا، وادخلت ساحتها

الفرنج بقتالها، وبأشرت مثل الماء بنزولها ونزالها، وهذا مما لم يعهد من
الأسطول الاسلامي مثله في سالف الدهر، لافي حالة قوة اسلام
ولا ضعف كفر، وبما سبيله أن تطرز السير الكريمة بفخره كما طرز الله
الصحيفة الشريفة بأجره، وقتل على قلعة عكا ثلاثة نفر بالييم السهام،
أبعد ماكانوا وقفوا عنها، وأمن ماكانوا منها، فصرعتهم الأيدي والأفواه،
وخرروا سجدا على الجباه، سجودا لايرفعون منه الرؤوس، ولاينتقلون منه
إلى حالة الجلوس، ولايرفع فيها يرفع لهم من عمل، ولاهم فيه من قبلة
ولاهم به من قبل، وأقامت المراكب يومين تقابلها، وتقاتلها وتناضلها.

فصل في باقي حوادث هذه السنة

منها حجة الفاضل الثانية، ووفاة الخليفة المستضىء بالله وغير ذلك، قال العماد: وفي العشر الأخير من شوال سنة خمس وسبعين خرج الفاضل من دمشق إلى الحج، ثم عاد إلى مصر من مكة.

قلت: وقفت على نسخة كتاب الفاضل إلى الصفي بن القابض، يصف له مالقي في طريقه إلى مصر، وركوب البحر، وكانت جماله ذهبت بمكة في خامس عشر ذي الحجة. قال: «خرجنا من مكة شرفها الله يوم الخامس والعشرين من ذي الحجة، وفي هذه الأيام زاد تبسط المفسدين، وإسراف المسرفين، وظهر من هوان أمير الحاج العراقي، ومن ضعف نفسه وانخفاض جناحه، ما أطمع المفسد، وأخاف المصلح، ووصلنا إلى جدة يوم الأحد السابع والعشرين من ذي الحجة، وركبنا البحر في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين منه، وبتنا فيه ليلتي الأربعاء والخميس، ورمتنا الريح إلى جزيرة بالقرب من بلاد اليمن تسمى دبادب، وكانت إحدى الليلتين في البحر من ليالي البلاء، وبالله أقسم لقد شاب بعض رؤوس أصحابنا في تلك الليلة، وآيسوا من الأنفس، وتمنوا معاجلة الأمر وتقصير العذاب، وظنوا أنهم أحيط بهم وعاتبوا أنفسهم ثم احتجوا عليها بالأقدار التي لاحيلة فيها، وصبرنا إلى أن فرج الله سبحانه، ونزلنا البرية بحيث لاماء يشرب، ولاجمل يركب، وانفدنا إلى البجاة النازلين على ساحل البحر فأحضروا جمالا ضعيفة أجرتها أكثر من ثمنها وثن ما تحملها، فركبناها ووصلنا إلى عيذاب بعد عشرة أيام، وقد هلكنا ضعفا وتعبا وجوعا وعطشا، لأن الخلق كانوا كثيرا، والزاد يسيرا، وركبنا البرية من عيذاب إلى أسوان، فكانت المهمة قاصرة في المزداد، فكانت البلوى عظيمة في العطش، فأما الحزون والوعور فهي تزيد على ما في برية الشام

بكونها طريقا بين جبلين، كالدرج المتضايق، والزقاق المتقارب، وحر
الشمس شديد، وقريب الوعد بينهما بعيد، ولطف الله إلى أن وصلنا مصر
في السابع عشر من صفر».

قلت: وللوجيه بن الذروي في الفاضل:
لك الله إمام حجة أو وفادة
فمن مشهد يرضي الإله وموسم
ترى تارة بين الصوارم والقنا
وطورات ترى بين الخطيم وزمزم
وكم لك يا عبد الرحيم مآثر
لها في سماء الفخر إشراق أنجم
كأنك لم تخلق لغير عبادة
وأظهر فضل في السورى وتكرم

قال العماد: وفي هذه السنة طهر الملك العزيز أبو الفتح عثمان عماد
الدين ابن السلطان، وكان أحب أولاده إليه وهو الذي قام بتدبير الملك
بعده، وولد بمصر ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسة، كما
سبق ذكره، وكان السلطان لما قدم الشام زاد شوقه إليه فاستقدمه،
فقدم عليه عاشر رجب سنة إحدى وسبعين وأنشد العماد السلطان عند
قدمه قصيدة منها.

يا أسد اجمي عرين العلى
هتئت جمع الشمبل بالشبل
عثمان ذي النورين بين السورى
من سؤدد سام ومن فضل
يجيك أقداما وبأسافما
أشبه هذا الفرع بالأصل
مخائل السرى شد على بشره
شاهدة بالفضل والنبل

ملك قضى اوله أنه
على ملكه الأرض يستعلي
بالمملك الناصر سلطاننا
طالت يد الاحسان والعدل

ثم لم يفارقه، واستصحبه إلى مصر في سنة اثنتين وسبعين، ثم عاد به معه إلى الشام في شوال سنة ثلاث وسبعين، واتخذ له معلما من مصر، وهو نجم الدين يوسف بن الحسين المجاور، فحصل من صحبته رزقا واسعا لاسيما في عام الطهور فإنه عم فيه السرور والحبور، وكان متولي الانفاق في الطهور صفي الدين بن القابض، لأنه كان متولي الخزانة والديوان، والأعمال بدمشق.

قال: وحج— يعني ابن القابض— سنة أربع وسبعين، وفيها حج الفاضل من مصر يعني حجته الأولى، وعاد إلى الشام ومعه ابن القابض.

قلت: فلما رجعا معا في حجة الفاضل الأولى إلى الشام، ثم انفرد الفاضل بالحج ثانيا من العام المقبل وهو سنة خمس وسبعين، وتم له في رجوعه ماتم كاتبه بالكتاب الذي سبق ذكره يصف له مالقي في رجوعه، وكانت حجة الفاضل الأولى من مصر، ورجع إلى الشام، وكانت الثانية من الشام ورجع إلى مصر.

وفي هذه السنة توفي الملك المنصور حسن ابن السلطان صلاح الدين، وقبره القبر القبلي من القبور الأربعة بالقبة التي فيها شاهنشاه بن أيوب بالمقبرة النجمية بالعوينة ظاهر دمشق.

قال العماد: وفيها خرجوا إلى بعلبك لتسليمها إلى عز الدين فرخشاه فسلكوا طريق الرواديف، وهي طريق شاقة، وفيها أغار عز الدين على

صنف ثامن عشر ذي القعدة، وكان قد جمع لهم من رجال بانياس وماحولها، ورجع غانها سالما.

قال: وفي مستهل ذي القعدة أو ثانيه توفي ببغداد الخليفة الإمام المستضىء بالله أمير المؤمنين ، واستحلف ولده الناصر لدين الله أبو العباس أحمد ، وكـ _____ ان رسول السلطان ضياء الدين بن الشهرزوري حاضرا فحضر وبايع وأخبر بجلية الحال، فبادر السلطان إلى الخطبة له في جميع البلاد ومضى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن اسماعيل من بغداد رسولا إلى بهلوان، وألزمه حتى خطب بهمدان وأصفهان، وعمت الدعوة الهادية في جميع بلاد خراسان، ثم لما رجع شيخ الشيوخ جاء إلينا رسولا في سنة ست وسبعين، وأخذ السلطان معه إلى مصر وحج منها وركب البحر كما سيأتي ذكره.

وللعلماء في مدح الإمام الناصر قصائد منها قصيدة بائية مدحه بها سنة فتح القدس وسيأتي منها أبيات عند ذكر فتحه ومنها:
الدهر ينصرني مادام ينسبني
لخدمة الناصر المنصور نساب
بطاعة الناصر بن المستضىء أبي العـ
عباس أحمد لأيام أصحاب

وقال محمد بن القادسي في تذييل تاريخ أبي الفرج بن الجوزي: مولد المستضىء ثالث عشري شعبان من سنة ست وثلاثين، وكانت خلافته تسع سنين وستة أشهر وواحدا وعشرين يوما، بويح تاسع ربيع الآخر سنة ست وستين، وكان كريما رحوما بارا بالرعية يعفو عن الجرائم الكبار، عادلا ظهر يوم مبايعته من رد المظالم والأملاك المقبوضة والإفراج عن المسجونين وإسقاط الضرائب والمكوس ماشاع واشتهر.

قال: وتقدم إلى شيخ الشيوخ عبد الرحيم وإلى عبد الرحمن بن الجوزي فصليا عليه، ثم بايع الناصر أخوه الأمير أبو منصور هاشم، ثم بنو أعمامه وخواصه ثم الولاة وأرباب المناصب والأعيان والوافدون للحج من بلاد خراسان وغيرهم، وكان والده المستضىء قد عهد إليه قبل وفاته بيوم واحد.

قلت: كذا نقلته من خطه، ولعله أراد بأسبوع واحد فسبق به قلمه، فإن ابن الديلمي ذكر أنه خطب للناصر بولاية العهد يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال.

ثم قال ابن القادسي: وفي سابع ذي القعدة قبض على صاحب المخزن ظهير الدين أبي بكر بن العطار، ووكل به وتتبع أصحابه ومن يتعلق به، وقتل النقيب مسعود الذي كان بين يديه، وكان أحد الأعوان بباب النوبي قد نزعت الرحمة من قلبه، فقطع قطعاً وشد في رجله جبل، وسحبته العامة في الدروب، ثم أحرقوه بعد ذلك.

قال: وفي حادي عشره حمل ابن العطار ميتاً، وعلم به العامة فرجموا تابوته بالأجر، فألقاه الحمالون وهربوا، فأخذته العامة وشدوا في رجله شريطاً وسحب في جميع بغداد ومنافذها ودروبها ومحالها، وقطع لحمه قطعاً.

قال: وتوجه شيخ الشيوخ أبو القاسم عبد الرحيم إلى البهلوان بن ايلدكز شحنة همذان لأجل الخطبة، فتوقف عن ذلك، فهاجت العامة عليه، ووثب أهل المذكور وخطبوا، وجاء كتاب شيخ الشيوخ إلى الديوان سطرها فلان، والحال في الجنوح كقصّة نوح، من قرأ السورة عرف الصورة.

قال: وفي هذه السنة اشتد الغلاء، وكثر الوباء ببغداد وغيرها من

البلاد، وذكر أن رجلا بواسط ذبح بتسا له وأكلها، وآخر بقر بطن صبي وأخذ كبده وشواها وأكلها.

قال: وفي رابع عشر ربيع الآخر زلزلت الأرض بعد العتمة فوق بلاد إربل، فلما أصبح الناس عادت الزلزلة في الجبال فتصادمت، ووقع منها الحجارة وسقطت قلاع كثيرة، وهلكت قرى بمن فيها، وكان يكون بين الجمل والجمل عشرون ذراعا فتقذفها الزلزلة فيتصادمان ويعودان إلى مكانها.

قال ابن أبي طي: وفيها أحرق الاسماعيلية أسواق حلب وافتقر أهلها بذلك، وكانت إحدى الجوائح التي أصابت حلب وأهلها.

قال: وفيها خرج قراقوش التقوي إلى طرابلس المغرب، ففتح بلادا وصلح حروبا مع ابراهيم السلاحدار الذي دخل بلاد المغرب أيضا من أصحاب تقي الدين، لأن نفسه أطمعته أن يفعل فعل قراقوش في تملك البلاد، ثم أصلح بينهما.

فصل ثم دخلت سنة ست وسبعين

ففيها توفي الحافظ أبو طاهر السلفي رحمه الله بالاسكندرية، وقد زرت
قبره بها داخل الباب الأخضر.

قال العماد: وفيها هادن السلطان صلاح الدين الفرنج، وتوجه إلى بلد
الروم فأصلح بين نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن أرتق،
صاحب حصن كيفا، وبين زوج ابنته السلطان غز الدين قليج أرسلان
ابن مسعود بن قليج أرسلان، واجتمعوا على نهر يقال له كوك سو،
وكثر ثم الهدايا والدعوات والأفراح والهبات، وفيها دخل السلطان بلاد
الأرمن لقمع ملكهم ابن لاون لأنه كان استمال قوما من التركمان حتى
يرعوا في مراعي بلاده بالأمان ثم صبحهم بغدره، وحصلوا بأسرهم في
أسره، فدخل السلطان بلاده وأذل أعوانه وأجناده، ونصر الله المسلمين
بالرعب فأحرق من الخوف قلعة شائخة تعرف بالمناقير، وبادر المسلمون
إلى إخراج ما فيها من الآلات والغلات فتقووا بها وتمموا هدمها إلى
الأساس.

قال ابن أبي طي: ووجد المسلمون في أرضها صهريجا مملوء آلات
نحاس وفضة وذهب لها زمن طويل، قال: وبذل للسلطان جملة من المال
وأنه يطلق من عنده من الأسارى، فلم يرض السلطان بما بذله فزاد في
المال وأنه يشتري خمسمائة أسير من بلاد الفرنج ويعتقهم، فأجاب
السلطان وأخذ منهم رهينة على ذلك.

قال العماد: وأذعن الأرمني وذل، وأطلق ما بيده من الأسارى، ورجع
السلطان مؤيدا منصورا، ووصل إلى حماة في أواخر جمادى الآخرة، وكان

الجمال الواسطي أبو غالب محمد بن سلطان بن الخطاب المقرئ شاهدا
هذه الغزاة فنظم قصيدة في السلطان منها:
لقد جعل الله منك السورى
بأوفى مليك وفي هجان
تهش إلى نغيات السيو
ف في الهام لانغيات القيومان
أزرت أبى ن لاون لأواءه
فأضحى به خبرا عن عيان
ودان من اللذل لا ير عوي
حذارا من الراعات اللدان
فلا قدم عنده للثبا
ت وليس له بسطاك م يمدان
وأخلى إليكم المنى اقير
وغادر لله دم تلك المباني
وأرسل بالاسراء العنا
ة يسأل اطلاقه فهو عاني
رتقت بعزمك والمكرما
ت فتوقا من الأرتقي الهجان
ورعت ابن سلجوق في ملكه
فقعق من رعبه بالشنان
قال: ولما وصل السلطان إلى حمص وخيم بالعاصي أتاه الفقيه مهذب
الدين عبيد الله بن أسعد الموصلي وأنشده، وله في السلطان مدائح منها
قصيدة غراء مطلعها:

أما وجفونك المرضى الصحاح
وسكرة مقلتيك وأنت صاحي
لقد أصبحت في العشاق فردا
كما أصبحت فردا في الملاح

يهز الغصن فوق نقي ويرنو
بحد ظبي ويسم عن أقحاح
وقد غرس القضيب على كثيب
فأثمر بالظلام وبالصبحاح
ومال مع الوشاة ولاعجيب
لغصن ان يميل مع الرياح
قطعنا الليل في عتب وشكوى
إلى أن قيل حي على الفلاح
ولاح الصبح يحكي في سنياه
صلاح الدين يوسف ذا الصلاح
ولما ضاق حد عن مداه
لقيناه بأمال فساح
فمن هرم وكعب وابن سعدي
رعاء الشاء والنعم المراح
جواد بالبلاد وما حوته
إذا جادوا بالبان اللقاح
ليفد حياء وجهك كل وجه
إذا سئل الندي جهم وقحاح
ملوك جلهم مغرى بظلم
ومشغول بله أو مزاح
إذا ما جالت الأبطال ولي
ويقدم نحو جائلة الوشاح
وبون بين مالك بيت مال
ومالك رق املاك النواحي
هم جمعوا وقد فرقت لكن
جمعت به الرجال مع السلاح
وما خضع الفرنج لديك حتى
رأوا مالا يطاق من الكفاح

وماسألك عقد الصلح ودا
ولكن خوف معلمة رداح
مألت بلادهم سهلا وحزنا
اسودا تحت غابات الرماح

وقال ابن شداد: لما عاد السلطان بعد الكسرة— يعني كسرة
الرملة— إلى الديار المصرية، وأقام بها ريثما لم الناس شعثهم، وعلم
تخبط الشام عزم على العود إليه، وكان عوده للغزاة فوصله رسل قليج
أرسلان يلتمسون منه الموافقة ويستغيث إليه من الأرمن، فاحتمل نحو
بلاد ابن لاون لنصرة قليج أرسلان عليه ونزل بقرا حصار، وأخذ عسكر
حلب في خدمته لأنه كان قد اشترط في الصلح ذلك، واجتمعوا على
نهر الأزرق بين بهسنا وحصن منصور وعبر منه إلى النهر الأسود طرف
بلاد ابن لاون، فأخذ منهم حصنا وأخريه، وبذلوا له أسارى والتمسوا
منه الصلح، وعاد عنهم، ثم راسله قليج أرسلان في صلح الشرقيين
بأسرهم، واستقر الصلح في عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين،
ودخل في الصلح قليج أرسلان والمواصلة وأهل ديار بكر، وكان ذلك
على نهر سنجه، وهو نهر يرمي إلى الفرات، وسار السلطان نحو دمشق.

فصل في وفاة صاحب الموصل

قال العماد: وفي أوائل هذه السنة توفي صاحب الموصل سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، صاحب الموصل، والسلطان نجيم على كوك سو من حدود بلاد الروم، وجلس مكانه أخوه عز الدين مسعود بن مودود، وجاء رسول مجاهد الدين قايماز، وهو الشيخ الفقيه فخر الدين أبو شجاع بن الدهان البغدادي إلى السلطان، وطلب منه أن يكون معه كما كان مع أخيه من إبقاء سروج والرها والرقة وحران والخابور ونصيبين في يده، فلم يفعل السلطان، وقد كانت له بإطلاق الخليفة، وإنما جعلها في يد سيف الدين غازي بالشفاعة على شرط أنه يقوي السلطان بالعساكر، فلما مات سيف الدين كتب السلطان إلى الخليفة الناصر يعلمه بذلك وإن هذه البلاد لم تنزل تتقوى بها ثغور الشام، ففوضت إليه على ما أراد، وكان الكتاب إلى صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ من إنشاء العماد وفيه: «قد عرف اختصاصنا من الطاعة والعبودية للدار العزيزة النبوية، بما لم يختص به أحد، وامتدت اليد منها في إقامة الدعوة الهادية بمصر واليمن والمغرب بما لم يمتد إليه يد، وأزلنا من الأقاليم الثلاثة أدعيا، وخلفناهم للردا حيث دعوا بلسان الغواية خلفا، ولاخفاء إن مصر إقليم عظيم وبلد كريم بقيت مائتين وخمسين سنة مضميمة، وعانت كل هزيمة، وعانيت كل عظيمة، حتى أنقذها الله عز وجل بنا من عبيد بني عبيد، وأطلقها بمطلقات أعتتنا إليها من عناء كل قيد، وفيها شيعة القوم، وهم غير مأموني الشر إلى اليوم، وطوائف أقاليم الروم والفرنج من البر والبحر بها مطيفة، فمن حقها ان يتوفر عسكرها، فلو حصل والعياذ بالله بها فتح أعضل رتقه، واتسع على الراقع خرقه، واحتجنا في حفظ بلاد الشام، وثغور الاسلام إلى استصحاب العسكر المصري إليها، وله مدة خمس سنين في بيكارها، منتقما من كفارها، محتملا لمشاقتها على غلاء اسعارها، وإنما أحوج إلى ذلك أن بلاد هذا الثغر قد

اقتطعت عنه، وعساكرها أخذت منه، وكانت في تولى نور الدين رحمه الله ثم ذكرها كما سبق ففوضت إليه كما سيأتي.

وقال ابن الأثير: توفي سيف الدين يوم الأحد ثالث صفر سنة ست وسبعين، وكان مرضه السل، وطال به، قال: ومن العجائب أن الناس لما خرجوا يستسقون بالموصل سنة خمس وسبعين للغلاء الحادث في البلاد، خرج سيف الدين في موكبه فثار الناس وقصدوه مستغيثين به، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر، فأجابهم إلى ذلك، فدخلوا البلد، وقصدوا مساكن الخمارين وخربوا أبوابها ونهبوها، وأراقوا الخمر وكسروا الأواني، وعملوا مالا يجل، فاستغاث أصحاب الدور إلى نواب السلطان، وخصوا بالشكوى رجلا من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق، ولم يكن له في الذي فعله الناس من النهب فعل، إنما هو أراق الخمر، ولما رأى فعل العامة نهاهم فلم يسمعوا منه، فلما شكى أحضر بالقلعة، وضرب على رأسه فسقطت عمامته، فلما أطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس فأرادوا تغطيته بعمامته فلم يفعل، وقال: والله لا غطيته حتى ينتقم الله ممن ظلمني، فلم يمض غير قليل حتى توفي الدزدار المباشر لأذاه، ثم تعقبه مرض سيف الدين، ودام مرضه إلى أن توفي، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وشهورا، وكان أحسن الناس صورة، تام القامة مليح الشائل، أبيض اللون، مستدير اللحية، متوسط البدن بين السمين والدقيق، وكان عاقلا وقورا قليل الالتفات إذا ركب، وإذا جلس، عفيفا لم يذكر عنه شيء من الأسباب التي تنافي العفة، وكان غيورا شديد الغيرة لم يترك أحدا من الخدم يدخل دور نسائه إذا كبر إنما يدخل عليهن الخدم الصغار، وكان لا يجب سفك الدماء ولا أخذ الأموال مع شح فيه.

قال: ولما اشتد مرضه أراد أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجرشاه، فخاف من ذلك لأن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد

تمكن بالشام وقويت شوكته، وامتنع أخوه عز الدين من الإذعان والإجابة إلى ذلك، فأشار الأمراء الكبار ومجاهد الدين قايباز بأن يجعل الملك بعده في أخيه، لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل، وقوة النفس وحسن سياسة الملك، وأن يعطي ابنه بعض البلاد، ويكون مرجعها إلى عمها عز الدين ليبقي لهما ذلك، ففعل ذلك وحلف الناس لأخيه، فلما توفي سيف الدين كان مجاهد الدين هو المدبر للدولة والنائب فيها والمرجع إلى قوله ورأيه، فركب إلى الخدمة العزية وعزاة وركبه إلى دار المملكة ومشى في ركابه راجلا، فدخلها وجلس للعزاء، وكانت الرعاية تخافه قبل أن يملك لإقدامه وجراءته وحدة كانت فيه، وكان لا يلتفت إلى أخيه سيف الدين إذا أراد أمرا، فلما ولي تغيرت أخلاقه وصار رفيقا بالرعية محسنا إليهم، قريبا منهم.

قال ابن شداد: وفي عاشر المحرم سنة ست وسبعين بلغ الملك الصالح بن نور الدين عصيان غرس الدين قليج بتل خالد فأخرج إليه العسكر، ثم بلغه وفاة ابن عمه صاحب الموصل ثالث صفر.

فصل

في وفاة شمس الدولة بن أيوب أخي السلطان الأكبر وقدوم رسل الديوان بالتفويض إلى السلطان فيما طلب

قال ابن أبي طي: كان السلطان قد أنفذ أخاه شمس الدولة إلى الاسكندرية، وجعل إليه ولايتها، فلما حصل بها لم توافقه، وكان يعتاده القولنج فهلك به ودفن بقصر الاسكندرية، وكان أحد الأجواد الكرماء الأفراد، شجاعا باسلا عظيم الهية، كبير النفس، واسع الصدر ممدحا فيه يقول ابن سعدان الحلبي من قصيدة:

هو الملك ان تسمع بكسرى وقيصر

فإنهما في الجود والبأس عبدها

وما حاتم ممن يقاس بمثله

فخذ مارا يناه ودع مارو يناه

ولذ بذراه مستجيرا فإنه

يجيرك من جور الزمان وعدواه

فلا تتحمل للسحائب منة

إذا هطلت جودا سحائب جدواه

ويرسل كفيه بما اشتق منها

قليل من يمناه وليس يراه

وقال العماد: وفيها في المحرم توفي بثغر الاسكندرية تورانشاه أخو صلاح الدين، ووصل الخبر بذلك إلى السلطان، وهو نازل بظاهر حمص، فحزن عليه حزنا شديدا، وجعل يكثر إنشاد أبيات المراثي، وكان كتاب الحماسة من حفظه، وكان صلاح الدين لما ملك مصر أرسله إلى اليمن فملكها، ثم استتاب فيها وقدم الشام سنة إحدى وسبعين، فلما وصل تبيء جاء منه كتاب وفيه أبيات لشاعره ابن المنجم منها:

فهل لأخي بل مالكي علم إنني
إليه وإن طال التردد راجع
وأني بيوم واحد من لقاءه
ملككي على عظم المزية بائع
ولم يبق إلا دون عشر من ليلة
وتجني المنى أبصارنا والمسامع
لدى ملك تعنو الملوكة إذ بدا
وتخشع إعظاماله وهو خاشع
كتبت وأشواقني إليك ببعضها
تعلمت النوح الحمام السواجع
وما الملك إلا راحة أنت زندها
تضم على الدنيا ونحن الأصابع

قلت: وقبر تورانشاه الآن بالترية الحسامية بالعوينة ظاهر دمشق نقلته
إليها أخته ست الشام بنت أيوب، وبنت القبر عليه، وعلى زوجها ناصر
الدين محمد بن شيركوه، وهو ابن عمها وعلى قبرها وقبر ابنها حسام
الدين عمر بن لاجين، وسيأتي ذكره وإليه تنسب الترية، فهي ثلاثة قبور
القبلي لتوران شاه، والأوسط لابن شيركوه، والشامي لست الشام وابنها
رحمهم الله (٧).

قال العماد: وفيها في رجب وصلت رسل الديوان العزيز الناصري،
صدر الدين شيخ الشيوخ أبو القاسم عبد الرحيم، ومعه شهاب الدين
بشير الخاص بالتفويض والتقليد والتشريف الجديد، فتلقيناهم بالتعظيم
والتمجيد وركب السلطان للتلقي، وعلى صفحاته بشائر الترقى، فلما
ترآى له الرسل الكرام، ووجب لهم الإجلال والإعظام، نزل وترجل وأبدى
الخضوع وتوجّل، ونزل الرسل إليه وسلموا عن أمير المؤمنين عليه، فتقبل
الفرس وقبل الأرض، ثم ركبوا ودخلوا المدينة.

قال ابن أبي طي: وكانت هذه أول خلعة قدمت من الإمام الناصر، على الملك الناصر، وكانت ثوب أطلس أسود واسع الكم مذهب، وبيقار أسود مذهب، وظيفسان أسود مذهب، ومشدة سوداء مذهب، وطوق وتخت وسر فسار وجواد كميت من مراكب الخليفة عليه سرج أسود، وسلال أسود، وطوق مجوهر، وقصبة ذهب وعلم أسود، وعدة خيول وبقج، وركب السلطان بالخلعة وزينت له دمشق، وكان يوما عظيما.

قال العماد: وظفر السلطان من صدر الدين بصديق صدوق، وكان قد عزم على قصد الديار المصرية، وسلوك طريق ايلة والبرية، فحسن لشيخ الشيوخ مصاحبته، ورغبة زيارة قبر الشافعي رضي الله عنه، فقال: قد عزمت في هذه السنة على الحج فأصل معكم إلى القاهرة بشرط إقامة يومين ولأدخلها وإنما أسكن بالتربة الشافعية، وأسير منها إلى بحر عيذاب فلعلي أدرك صوم رمضان بمكة، فالتمز ابن الشهرزوري، وأنشأ العماد كتابا في الجواب إلى الديوان وفيه: « وقد توجه الخادم إلى الديار المصرية لتجديد النظر فيها، ثم يستخير الله في الحج وأدائه، ويعود إلى مجاهدة أعدائه. »

فصل

في رجوع السلطان إلى مصر مرة ثانية

قال العماد: ولما عزم السلطان على الرحيل استتاب بالشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه، وكان عزيز المثل، غزير الفضل، وقال فيه العماد عند توديعه قصيدة منها:

أسأل الله ذا العلى أن تعيـش
السف عام لنصره مستجيشا

ومنها:

ما أكدي شيئا سوى فروة منـي
ك وأبغني لسفرتي اكديشا
كيف يخلمون دفء ظهـر
سالك طرق إيالة والعريشا

ووقفت على ثلاثة كتب للفاضل عن الملك العادل إلى الولاة باليمن، يعلمهم أن ملوك الشرق قد دخلوا في طاعة السلطان، وأنه عازم على القدوم إلى مصر، وصوم رمضان بها، والحج إلى بيت الله الحرام منها، ويأمرهم بالاستكثار مما يحمل لأجله إلى مكة من المال والأزواد والخلع، مما تشتمل عليه تلك الأعمال، ووقفت على كتابين آخرين أحدهما إلى أمير مكة، والآخر إلى أمير ينبع يعلمهما بذلك ليتأهبا لقدمه، ووقفت على كتاب سادس للفاضل إلى السلطان في ذلك يقول فيه: « جعل الله الملوك ذمة لسيفه، وشرذ منام الأعداء منهم بطيفه، وأمن أهل الاسلام بعدله من جور الدهر وحيفه، وأشهده موقف الحج الأكبر، وزان بمحضره مشهد خيفه، وجعل وفده الأكرم وضييف بيته في هذه السنة في وفده وضييفه » ثم هنا بما فتح الله عليه من محبة الجهاد، وما أثره في بلاد الأرمن وغيرها من البلاد، وما تبع ذلك من نية الحج بلغه الله منه المراد، ودخول السلطان

بلاد الأرمن كان في هذه السنة، كما سبق، فلعله سنح له الحج مع شيخ
الشيخ، ثم حصل له مامنعه منه.

قال العماد: ورحل السلطان إلى مصر يوم الاثنين ثامن عشر رجب
ومعه صدر الدين شيخ الشيخ، فأقام يومين كما ذكر وتوجه منها إلى
مكة على البحر فأدرك الصوم.

قال العماد: ووصلنا إلى القاهرة على طريق إيالة ثالث عشر شعبان،
واستقبلنا أهلها، ولقينا الأكابر والأعيان، والملك العادل أخو السلطان
حيثئذ بها نائبة، وتلقينا مواكبه ومواهبه، وخدمته بقصيدة ذكرت فيها
المنازل والمناهل من يوم الرحيل من دمشق إلى الوصول بالقاهرة منها:
قلبي طال ليلى بعدكم

أسى فمتى ألقى بوجهكم الفجرا
فقدت حياتي مذفقت لقاءكم
فهل لحياتي منكم نشأة أخرى
أجيران جيرون المجير من جارهم
من الجور حوزوا في مشوقكم الأجر
محبكم قد خاناه الصبر فاطلبوا
محباسواه عنكم يحسن الصبرا
ومذغبت عن مقري قد نبنا
سقى ورعى ربي مقري في مقري
أحسن إلى عذرا وعذري واضح
لأن الهوى العذري مني في عذرا
إذا القدر المحتوم من جلق بنا
إلى مصر أسرى فالقلوب بها أسرى
رحلنا فما باحت بأسرارنا سوى
عبارة عين خوف يوم النوى عبرى
تركنا دمشق والجنان وراءنا
وقد أمننا بالكسوة الرفقة السفرا

وجئنا إلى المرج الذي طاب نشره
فلا زال من أحبابنا طيبا نشرنا
رحلنا بمرج الصفر العيس غدوة
فسارت وحطت في محجتها ظهرا
وقد قطعت بنا إلى الدير بعدها
وبعدهما غدر البشامية الغزرا
ورأس الحشا والقريتين وكلها
موارد فيها السحب قد غارت غدرا
وردنا من الزيتون حسمى وإيلة
وجزنا عقابا كان مسلكها وعرا
إلى قلعة السراعي إلى نابع إلى
جراول فالنخل الذي لم يزل قفرا
إلى منزل في روضة الجمل اغتدت
به عيسنا في صدر شارحه صدرا
ودون حثا لما حثنا ركا بنا
عيون لموسى لم يزل ماؤها مرا
هناك تلقانا الوفود برهم
فسروا بنا أنفسنا وزادوا بنا بشرا
قطعنا إلى بحر الندي بحر قلزم
ومن قصده بحر الندي يقطع البحرا
عبرنا إلى من كائر الرمل جوده
وجزنا إليه ذلك الرمل والجسرا
ولم يرونا ماء الثماد بعجرد
ولم يفتنع بالقل من يأمل الكثرا
وجبنا البويب والمصانع قبله
إلى بركة الجب التي قربت مصرا
إلى عزمه في المجرد غير قصيرة
وكان قصارى أمرنا أن نسرى القصرا

ولما نزلنا مصر في شهر طوبه
وردنا بكف العادل النيل في مسرى
غدا قاصرا عن قصره قصر قصير
وإيوان كسرى عند إيوانه كسرا

قال العماد: وفي هذه السنة بمصر عريت كتاب كيمياء السعادة
تصنيف الإمام أبي حامد الغزالي في مجلدين، وفزت من تعريبه وعلم
ما فيه بسعادتين، وذلك بأمر فاضلي لزماني امتثاله، وشملني في إتمامه
إقباله.

قال: وفيها في خامس عشري شوال توفي صاحبني المعتمد ابراهيم
بدمشق، وأنا بمصر.

قلت وهذا غير والي دمشق المعروف بالمبارز ابراهيم بن موسى،
ويلقب أيضا بالمعتمد، ورثني العماد صاحبه بقصيدة منها:
أرى الحزن لا يجدي على من فقدته
ولو كان في حزنني مزيد لذته
تغيرت الأحوال بعهدك كلها
فلمست أرى الدنيا على ما عهدته
عقدت بك الايمان بالنجح واثقا
فحلت يد الأقدار ما قد عهدته
وكان اعتقادي أنك الدهر مسعدي
فخافتني الأيام فيما اعتقدته
أردت لك العمر الطويل فلم يكن
سوى ما أراد الله لا ما أرادته
وداع دعائي باسمه ذاكراله
فأطربني ذكر اسمه فأسعدته
فقدت أحب الناس عندي وخيرهم
فمن لائم في فيها إذا ما نشدته

قال: ورثيته بيتين وذكرت العناصر الأربعة في بيت واحد منها:
لهفي على من كان صبحي وجهه
فعدمت حين عدتمته أنواره
سكن التراب وغاض ماء حياته
مداطفات ریح المنية ناره

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة سافر قراقوش إلى قابس، فذكر محاصرته لجملة من القلاع، وقتله جماعة من البربر، ومما ذكره أنه أسر جماعة على حصن وأمر بقتلهم، وفيهم صبي أمرد، فبذل فيه أهل القلعة عشرة آلاف دينار على أن لا يقتله فأبى فزاودوه إلى مائة ألف فأبى وقتله، فما استتم قتله حتى نزل شيخ من القلعة ومعه مفاتيحها وقدمها لقراقوش، فسأله عن الخبر فقال: هذا الصبي الذي قتلته ولدي، ولم يكن لي سواه ولأجله كنت أحفظ هذه القلعة، فلما قتلته علمت إن بقيت هذه القلعة في يدي ومت صارت إلى أولاد أخي وأنا أبغضهم فرده إلى القلعة وأخذ منه أموالا.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين

قال العماد: والسلطان مقيم بالقاهرة وقد عين لسماع الأحاديث النبوية بقراءة الإمام تاج الدين البندهي المسعودي ميقاتا، وجمع به من أهل العلم والعلماء عنده أشتاتا، وورد كتاب عز الدين فرخشاه من الشام يذكر ما من الله به على الأنعام من الإنعام بكثرة ولادة التوأم في ذلك العام، وجبر الله به ما كان قبله من الوباء، وتفاءلوا بالخصب بعد الجذب والغلاء.

قال: ودخلت الحمام الذي بناه زين الدين أبو الحسن علي بن نجاه الواعظ في داره، خارج باب زويلة بالقاهرة في ذي القعدة فقلت:

ما من زل من يرى
فيه غير عار فعار
بما تماط الأذياب
وترحض الأوضار
والعيش فيه قريـر
والطيبش فيه وقار
والسبب في كل يوم
لمن يرى مختار
نار تطيب الأعباب
لجنة هي نار

وله فيه:

ومن زل يدخله
لشغله كل أحد
يوجد فيه السبب في
كل خميس وأحد

فصل

في ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين رحمهما الله

وماتم في بلاده بعده وذلك بحلب

قال ابن شداد: وكان مرضه بالقولنج، وكان أول مرضه في تاسع رجب، وفي الثالث والعشرين منه أغلق باب قلعة حلب لشدة مرضه، واستدعي الأمراء واحدا واحدا واستحلفوا لعز الدين صاحب الموصل، وفي الخامس والعشرين منه توفي رحمه الله، وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس.

وقال ابن أبي طي: كان سبب موته أن علم الدين سليمان بن جندر سقاه سما في عنقود عنب وهو في الصيد، وقيل الذي سقاه ياقوت الأسدي في شراب، وقيل إنه أطعمه خشكناكة وهو في الصيد، قال: ودفن بالمقام الكبير الذي في القلعة، وحزن الناس له حزنا عظيما، وكان من أحسن الناس صورة وألبقهم أعطافا.

قلت: وبلغني أنه كان يقال إن موت الملك الصالح صغيرا كان من كرامات نور الدين رحمه الله، فإنه سأل الله تعالى أن لا يعذب شيئا من أجزائه بالنار، وولده جزؤه فمات قبل أن يطول عمره على أحسن سيرة وحالة رحمهما الله.

قال ابن الأثير: ولم يبلغ عشرين سنة، ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر تداويا بها، فقال: لأفعل حتى استفتي الفقهاء، وكان عنده علاء الدين الكاساني الفقيه الحنفي بمنزلة كبيرة ويعتقد فيه اعتقادا حسنا ويكرمه، فاستفتاه فأفتاه بجواز شربها، فقال له: ياعلاء

الدين إن كان الله سبحانه وتعالى قد قرب أجلي أيؤخره شرب الخمر؟
قال: لا والله ، قال: والله لالقيت الله تعالى وقد استعملت ما حرمه علي.

قلت: يحتمل أنه ذكر له أن من العلماء من ذهب إلى جواز ذلك لا أنه
كان يرى ذلك فإن مذهبه بخلافه، والله أعلم.

ثم قال ابن الأثير: فلما آيس من نفسه أحضر الأمراء كلهم وسائر
الأجناد ، واستحلفهم لابن عمه أتابك عز الدين، وأمرهم بتسليم مملكته
جميعها إليه، فقال له بعضهم: إن ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها
من البلاد من همذان إلى الفرات، فلو أوصيت بحلب للمولى عماد الدين
ابن عمك لكان أحسن، ثم هو تربية والدك، وزوج أختك، وهو أيضا
عديم المثل في الشجاعة والعقل والتدبير وشرف الأعراق وطهارة الأخلاق
والخلال التي تفرد بها، فقال: إن هذا لم يغب عني، ولكن قد علمتم
تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ومعني، فإن
سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها من صلاح الدين فإن
ملكها صلاح الدين فلا يبقى لأهلنا معه مقام، وإذا سلمتها إلى عز
الدين أمكنه أن يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله، فاستحسن
الحاضرون قوله وعلموا صحته، وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه،
ومن أشبه أباه فما ظلم، فلما توفي أرسل دزدار حلب، وهو شاذبخت
وسائر الأمراء إلى أتابك عز الدين يدعونه إلى حلب ليسلموها إليه، فورد
الخبر ومجاهد الدين قايماز قد سار إلى ماردين لمهم عرض فلقي
القاصدين عندها فأخبروه الخبر فسار إلى الفرات، وأرسل إلى أتابك عز
الدين ويشير بتعجيل الحركة، وأقام على الفرات ينتظره، فسار أتابك
مجداً فلما وصل إلى المنزلة التي بها مجاهد الدين أقام معه، وأرسل إلى
حلب يستحضر الأمراء فحضروا كلهم عنده، وجددوا اليمين له، فسار
حيثئذ إلى حلب ودخلها وكان يومه مشهودا، ولما عبر الفرات كان تقي
الدين عمر ابن أخي صلاح الدين بمدينة منبج فسار عنها هاربا إلى

مدينة حماة، وثار أهل حماة ونادوا بشعار أتابك، وكان صلاح الدين بمصر، فأشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق وأطمعوه فيها وفي غيرها من البلاد الشامية، وأعلموه محبة أهلها للبيت الأتابكي، فلم يفعل وقال: بيننا يمين فلا نغدر به، وأقام بحلب عدة شهور، ثم سار منها إلى الرقة فأقام بها وجاءه رسول أخيه عماد الدين يطلب أن يسلم إليه حلب، ويأخذ منه عوضها مدينة سنجار، فلم يجبه إلى ذلك ولج عماد الدين وقال: إن سلمتم إلي حلب، وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين، فأشار حينئذ الجماعة بتسليمها إليه، وكان أكبرهم في ذلك مجاهد الدين قايباز فإنه لجح في تسليمها إلى عماد الدين، ولم يمكن أتابك عز الدين مخالفته لتمكنه في الدولة، وكثرة عساكره وبلاده، فوافقوه وهو كاره، فسلم حلب إلى أخيه وتسلم سنجار، وعاد إلى الموصل، وكان صلاح الدين بمصر وقد آيس من العود إلى الشام، فلما بلغه ذلك برز عن القاهرة إلى الشام، فلما سمع أتابك عز الدين بوصول صلاح إلى الشام جمع عساكره وسار عن الموصل خوفا على حلب من صلاح الدين، فاتفق أن بعض الأمراء الأكابر مال إلى صلاح الدين وعبر الفرات إليه، فلما رأى أتابك ذلك لم يثق بعده إلى أحد من أمرائه، إذ كان ذلك الأمير أوثقهم في نفسه، فعاد إلى الموصل، وعبر صلاح الدين الفرات، وملك البلاد الجزرية، ونازل الموصل فلم يتمكن من النزول عليها، وعاد إلى حلب وحصرها فسلمها عماد الدين إليه وسبب ذلك أن عز الدين لما تسلم حلب لم يترك في خزائنها من السلاح والأموال شيئا إلا نقله إلى الموصل، وتسلمها عماد الدين وهي كما يقال بطن حمارة، فهو كان السبب في تسليمها.

قال ابن شداد: ولما توفي الملك الصالح سارعوا إلى إعلام عز الدين مسعود بن قطب الدين بذلك وبما جرى له من الوصية إليه، وتحليف الناس له، فسارع سائرا إلى حلب مبادرا خوفا من السلطان، فكان أول

قادم من أمرائه إلى حلب مظفر الدين بن زين الدين، وصاحب سروج، ووصل معها، من حلف الأمراء له، وكان وصولهم في ثالث شعبان، وفي العشرين منه وصل عز الدين إلى حلب، وصعد القلعة واستولى على خزائنها وذخائرها، وتزوج أم الملك الصالح في خامس شوال من السنة المذكورة، ثم أقام عز الدين بقلعة حلب إلى سادس عشر شوال، وعلم أنه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجته إلى ملازمة الشام لأجل السلطان، وألح عليه الأمراء في طلب الزيادات ورأوا أنفسهم أنهم قد اختاروه، وضاق عطنه، وكان صاحب أمره مجاهد الدين قايباز، وكان ضيق العطن لم يعتد مقاساة أمر الشام، فرحل من حلب طالب الرقة، وخلفه ولده ومظفر الدين بن زين الدين بها، فأتى الرقة ولقيه أخوه عماد الدين عن قرار بينهما، واستقر مقايضة حلب بسنجار، وحلف عز الدين لأخيه عماد الدين على ذلك في حادي عشري شوال، وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب، ومن جانب عز الدين من تسلم سنجار، وفي ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدين قلعة حلب.

قلت: ووقفت على كتاب فاضلي عن السلطان إلى عز الدين فرخشاه، وهو نائبه بدمشق: «وقفنا على كتابه، وعلمنا ما تجدد من الخبر مرض الملك الصالح واشتداد حاله، وانقطاع الداخل عليه» ثم أشار بتنفيذ عسكر إلى جهة أخيه تقي الدين على إظهار قاعدة النظر في القضية الحادثة بين ديار بكر وابن قرا أرسلان، والتوجه لفصلها، قال: «فيكون ظاهر حركة العسكر لهذا السبب المتقدم، وباطنها لهذا السبب المتأخر، وقد كوتب الولد تقي الدين ان يتوجه إلى منبج وتل باشر، وهي جمهور الطرق بل كلها وقد أوعزنا إلى تقي الدين بأن يكون حمام حماة في حلب، وحمام دمشق في حماة، وإلى الأجل ناصر الدين بأن يكون حمام دمشق في حمص، وحمام حمص في حلب، وولدنا عز الدين يؤمر بأن يكون حمام بصرى في دمشق، وقد بعثنا نجابين يكونون منيخين ببصرى، فإن تحققت الوفاة فنحن أسبق اليكم من الجواب قولاً وفعلاً، ووعداً ونجحاً، فالعلة

مزاحه، والعساكر مستريجه والظهر قد استعد والمصلحة في الحركة ظاهرة، وحجج انتقاد المتقدين في هذه القضية ساقطة».

وقال العماد: كان قصد السلطان إصلاح حال الملك الصالح، وأنه القائم مقام أبيه، فصد عنه مماليكه، فأخذت بلاده بلجاجهم، ومرضت دولته لسوء علاجهم، فاقتنع بحلب إلى أن توفي، ووصل ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل إلى حلب، فجمع ظاهره وباطنه، وأخذ خزائنه، واستخرج دفائنه، وأخلى كنائنه، ثم عرف أنه لا يستقر له بها أمر، فرغب أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار في تعويضها له بحلب، فمال إلى بذله ورغب، ولما سمع السلطان في مصر بوفاة الملك الصالح تحرك عزمه وندم على النزوح من الشام مع قرب هذا المرام، فكتب إلى ابن أخيه تقي الدين، وهو يتولى له المعرة وحماة، وكان نائبه بدمشق للنهوض، وكذلك شحذ عزائم نوابه بالشام بتجديد المكاتبات لهم وبعثهم على الاستعداد وحملهم، وكان نائبه بدمشق ابن أخيه عز الدين فرخشاه قد نهض في مقابلة الفرنج بالكرك، فإن الأبرنس الكركي كان يحدث نفسه بقصد تيباء في البرية، فما زال فرخشاه في مقابلته حتى نكص اللعين على عقبيه ذليلاً، ولم يجد إلى ماحدثته به نفسه سبيلاً، فعرف السلطان اشتغاله بهذا المهم، فكتب كتاباً يشرح الحال إلى بغداد باللفظ العمادي يقول فيه: «وشاع الخبر بغارة فرنج أنطاكية على حارم وأتوا من السبي والنهب بالعظائم، وشاع أيضاً أن عسكر حلب أغار على الراوندان وهي في عملنا، ورسولهم عند الفرنج يستنجدهم ويغريهم بنا، وقد راسلوا الحشيشية والمراد من الرسالة غير خاف والعلم بالمعتاد منه كاف، وابن أخي غائب في أقصى بلاد الفرنج في أول برية الحجاز فإن طاغية منهم جمع خيله ورجله، وحدثته نفسه الخبيثة بقصد تيباء وهي دهليز المدينة على ساكنها السلام، واغتنم كون البرية معشبة مخصبة في هذا العام، والعجب أن نحامي عن قبر النبي صلوات الله عليه وسلامه، مشتغلين بهم، والمذكور— يعني صاحب الموصل— ينازع في

ولاية هي لنا لياخذ بيد ظلمه، وكم بين من يحارب الكفر ويحمل إليهم قواصم الآجال، وبين من يتخذهم بطانة دون المؤمنين ويحمل إليهم كرائم الأموال، هذا مع مانع في الدولة الحنيفية والدولة الهادية العباسية من آثار لا يعد مثلها أولا لأبي مسلم لأنه أقدم ثم خامر، ووالى ثم ولى، ولا أخرا لطغربك فإنه نصر ونصب، ثم حجر وحجب، وقد عرف مافضلنا الله به عليهما في نصر الدولة، وقطع من كان ينازع الخلافة رداها وتطهير المنابر من رجس الأعداء، ولم نفعل مافعلنا لأجل الدنيا غير أن التحدث بنعمة الله واجب، والتبجح بالخدمة الشريفة والافتخار بالتوفيق فيها على السجية غالب، ولاغنى عن بروز الأوامر الشريفة إلى المذكور بأن يلزم حده، ولا يتجاوز حقه، فإن دخول الأيدي المختلفة عن الأعداء المتفقة شاغل، ويحتاج إلى مغرم ينفق فيه العمر بغير طائل، فإن الأعمار تمر مر السحاب، والفرص تمض ومض السراب، وبقاؤنا في هذه الدار القليل اللبث القصير المكث يؤثر أن نغتنمه في مجاهدة العدو الكافر الذي صار به البيت المقدس محلا للارجاس، ومضت عليه دهور وملوك لم يحصلوا من رجاء تطهيره إلا على الياس، وإن كان القوم قد بذلوا للدار العزيزة بذولا معارة، فقد أسلف الخادم خدمات ليست بعوار، فإنهم لو بذلوا بلادهم كلها ماوفت بفتح مصر التي رحل عنها أسامي الأدياء الراكبة أعوادها، وأعاد إلى عينها بعد بياض عمائها، من نور الشعار العباسي سوادها، فإن اقتضت الأوامر الشريفة أن يوعز للمذكور في حلب بتقليد فالأولى أن يقلد الجميع فلا رغبة فيما لا يؤمن معه شر الشريك، ولمالك الأمر الحكيم في ممالك الممالك»، وكان في الكتاب أيضا مامعناه أن حلب من جملة البلاد التي اشتمل عليها تقليد أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله له، وإنما تركها في يد ابن نور الدين لأجل أبيه، والآن فليرجع كل إلى حقه وليقنع برزقه».

ومن كتاب فاضلي: «فقد صرف وجهنا في هذا الوقت عن جهاد لو كنا بصدده، وعن فرض لو وصلنا يومه بغده، لكان الاسلام قد أعفى من

شركة الشرك، وانفك أهله من ربة أهل الأفك، ولكانت الأسماء الشريفة قد قرعت منابر طالما عزلت الصلب خطباءها، وكان الدين الخالص قد خلص إلى بلاد صار المشركون متوطنينها والمسلمون غرباءها.

وفي كتاب آخر له: «وقد علم الله أنا لهدنتهم كارهون، وفي مصلحة أهل الاسلام وفي مصالحهم راغبون، ولكننا بلينا بقوم كالفراش أو أخف عقولا، وكالانعام أو أضل سبيلا، إن بني معهم فعلى غير أساس، وإن عدد الغدر منهم فهو أكثر من الأنفاس».

وفي كتاب آخر: «والخادم والحمد لله يعدد سوابق في الاسلام والدولة العباسية لايعدها أولية أبي مسلم لأنه والى ثم وارى، ولا آخريه طغرلبك لأنه نصر ثم حجر، والخادم بحمد الله خلع من كان ينازع الخلافة رداءها، وأساغ الغصة التي ذخر الله للاساعة في سيفه ماءها، فرحل الأسماء الكاذبة الراكبة على المنابر، وأعز بتأييد ابراهيمي، فكسر الأصنام الباطنة بسيفه الظاهر لا الساتر، وفعل ومافعل للدنيا ولا معنى للاعتداد بما هو متوقع الجزاء عنه في اليوم الآخر» ومن كتاب آخر عند دخول صاحب الموصل حلب واستيلائه عليها، وكانت داخلة في تقليد السلطان السابق فقال: «دخل حلب مستوليا، وحصل بها معتديا وعقود الخلفاء لاثمل، والسيوف في أوجه أوليائهم لاتسل، وإنه إن فتح باب المنازعة، أدنى من ندامه، وأبعد من سلامه، وخرق مايعبى على الراقع، وجذب الرداء فلم تغن فيه إلا حيلة الخالع، وليس الاستيلاء بحجة في الولايات لطالبها، ولا الدخول إلى الدار بموجب ملك غاصبها، إلا أن تكون البلاد كالديار المصرية حين فتحها الخادم وأهله، حيث الجمعة مستريبه، والخلافة في غير أهلها غريبة، والعقائد لغير الحق مستجيبة، فتلك الولاية أولى من منحها من فتحها، وكان سلطانها من أدخل في كان شيطانها، وأما حلب فإن الكلمة فيها عالية، والمنابر فيها بالاسم الشريف حالية، فإنما تكون لمن قلدها لمن توردها، ولن بالحق تسلمها

لا لمن بالباطل تسنمها، ولو كانت حلب كما كانت مصر لدخلها الخادم ولم يشاور و لولجها، ولم يناظر، ولكنه أتى البيوت من أبوابها، واستمطر القطار من سحابها» ، ثم ذكر أن المواصلة راسلوا الملاحدة الحشيشية، واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين، وواسطة بينهم وبين الفرنج الكافرين، ووعدوهم بقلاع من يد الاسلام تفلح، وضياح من في المسلمين توضع، وبدار دعوة بحلب ينصب فيها علم الضلالة فيرفع، وباللهعجب من الخصم يهدم دولة حق، وهي تبنيه، ومن العبد يبني ملكها بنفسه وماله وذويه، وهي تراقب أعلاه فيه، ودعواه في رسائلهم وغوائلهم ليست بدعوى لايقوم شاهدها، ولاهي بشناعة لايهتدي قائدها، بل هذا رسولهم عند سنان صاحب الملاحدة، ورسولهم عند القمص ملك الفرنج، وهذه الكتب الواصلة بذلك قد سيرت ولاستيجاب الولاية طرق، أما السبق إلى التقليد فللخادم السبق، وأما العدالة والعدل فلو وقع الفرق لوقع الحق، وأما بالآثار بالطاعة فله فيها مالولا معونة الخالق فيه لقصرت عنه أيدي الخلق، ومتى استمرت المشاركة في الشام أفضت إلى ضعف التوحيد وقوة الاشرار، وترامت إلى أخطار يعجز عنها خواطر الاستدراك، وأحوجت قابض الأعنة إلى أن يعليها الجدد، ويرسلها العراك، وطريق الصلاح والمصالحات الإيوان، والمشار إليهم لايلتزمون ربقتها، ولايوجبون صفقتها، وكفى بالتجريب ناهيا عن الغره، ولايلدغ المؤمن إلا مره، وإذا اجتمعت في الشام أيد ثلاث يد عادية، ويد ملحدة، ويد كافرة نهض الكفر بثليلته، وقصرت عن الاسلام يد مغيثه، ولم ينفع الخادم حينئذ تصحيح حسابه، وتصديق حديثه، ومايريد الخادم إلا من تكون عليه يد الله وهي الجماعة، ولايؤثر إلا مايتقرب به إليه وهو الطاعة، ولايتوخى إلا ماتقوم به الحجة اليوم ويوم تقوم الساعة».

ومن كتاب آخر: «قد أحاط العلم بما طالع به أولا عند وفاة ولد نور الدين رحمه الله أن التقليد الشريف المستضىء لما وصله بالبلاد، وكان قد فتح أكثرها قلاعا وأمصارا، وحصونا وديارا، ولم يبق إلا قصبه حلب،

وهو على أخذها عدل ولد نور الدين عن القتال إلى النوال، وعن النزال إلى الاستنزال، وقصد القصد الذي ما أوجبت المحافظة ان يتلقى بالرد، فأقره على الولاية فرعا لأصلا، ونائبا لامستقلا، وسلم إليه البلاد ويده الغالبة لا المغلوبة، وسيوفه السالبة لا المسلوبة، ومشى الأمر معه مستقيما ومائلا، وجائرا وعادلا، إلى أن قضى نحبه، ولقي ربه فبدأ من المواصلة نقض الإيمان، والإبتداء بالعدوان، والتعرض للبلاد، والتصرف فيها بغير حجة يكون عليها الإعتاد، فطالع الديوان بالقضية، واستشهد بدلالات قوانينه الجليلة في هذا التقليد الذي تهادته المحاضر، وأشاعته المنابر، وسيرت إلى الشرق والغرب نسخته، وغلت الأيدي التي تحدث أنفسها أنها تفسخه».

فصل

قال العماد: وتوجه السلطان بعد شهر رمضان إلى الاسكندرية على طريق البحيرة، وخيم عند السواري وشاهد الاسوار التي جردها والعمارات التي مهدها، وأمر بالإتمام والإهتمام، وقال السلطان: نغتنم حياة الشيخ الإمام أبي طاهر بن عوف، فحضرنا عنده وسمعنا عليه موطأ مالك رضي الله عنه بروايته عن الطرطوشي في العشر الأخير من شوال، وتم له ولأولاده ولنا به السماع، والوالي يومئذ بها فخر الدين قراجا.

قلت: ووجدت للقاضي الفاضل كتابا كتبه إلى السلطان يهنيه بهذا السماع يقول فيه: «أدام الله دولة المولى الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، محيي دولة أمير المؤمنين، وأسعده برحلته للعلم، وأثابه عليها، وأوصل ذخائر الخير إليه وأوصله إليها، وأوزع الخلق شكرا لنعمته فيه فإنها نعمة لاتوصل إلى شكرها إلا بايزاعه، وأودع قلبه نور اليقين، فإنه مستقر لا يودع فيه إلا ما كان مستندا إلى إيداعه، والله في الله رحلتاه، وفي سبيل الله يوماه، وما منهما إلا أغر محجل، والحمد لله الذي جعله ذا يومين: يوم يسفك دم المحابر تحت قلمه، ويوم يسفك دم الكافر تحت علمه، ففي الأول يطلب حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم فيجعل أثره عينا لاتستر، وفي الثاني يحفل لنصرة شريعة هداه على الضلال فيجعل عينه أثر لا يظهر وقد استغرب الناس همم العلماء في رحلتهم لنقل الحديث وسماعه والموالاتة في طلب ثقته وانتجاعه، وصنفوا في ذلك تصانيف قصدوا بها التحريض للهمم والتنبيه والرفع من أقدار أهله، والتنويه، فقالوا: رحل فلان لسماع مسند فلان، وسار زيد إلى عمرو على بعد المكان، هذا وصاحب الرحلة قد نصب نفسه للعلم وشغل به دهره، ووقف عليه فكره، فلا يتجاذب عنان همته الكبائر، فما القول في ملك خواطره كأبوابه مطروقة، وأمور خلق الله كأمر دينه به معذوقة، إذ هاجر إلى بقية الخير في أضيقت أوقاته، وترك

للعلم أشد ضروراته، ووهب له أياما مع أنه في الغزاة يحاسب لها نفسه على لحظاته وساعاته، وما يحسب المملوك أن كاتب اليمين كتب قط للملك رحلة في طلب العلم إلا للرشيد هارون رحمة الله عليه، على أنه خلط زيارة نبوته بطلب، ورحل بولديه إلى مالك رحمة الله عليه لسماع هذا الموطأ الذي اتفقت الهمتان الرشيدية والناصرية على الرغبة في سماعه، والرحلة لانتجاعه، وقد كان الرشيد سام مالكا رحمه الله أن يجعل له ولولديه الأمين والمأمون مجلسا خاصا لاسماع مصنفه، فقال له مامعناه: إنها سنة ابن عمك صلى الله عليه وسلم، وغيرك من سترها، ومثلك من نشرها، فهذه رحلة ثانية في الزمان، وأولى في الإيوان، يكتبها الله للمولى بقلم كاتب اليمين، ويقوم فيها مقام الرشيد ويقوم عليه وعثمانه مقام ولديه المأمون والأمين، وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد على مالك رحمة الله عليه في خزانة الكتب المصرية، فإن كان قد حصل بالخزانة الناصرية، فهو بركة عظيمة، ومنقبة كريمة، وذخيرة قديمة، وإلا فليتمس، وكذلك خط موسى بن جعفر في فتيا المأمون رحمهما الله كان أيضا فيها، وكلاهما يتبرك بمثله، ويعلم به فضل العلم لاخللا المولى أبقاه الله من فضله، وقف المملوك على مباشر به من صنع المولى وتوفيقه، وصحة مزاجه في طريقه، وانقطاع ماكان من دم، واسترواح القلب من كل هم، وقد استفتحت هذه الطريق بكل فال مباركة البكر والفال، مأثورة عن سيد البشر، فمن ذلك صحة جسمه فلتهنه الصحة، وفسحة قلبه دامت له الفسحة، وانقطاع الدم، وطريقة إلى الشام ينقطع بها الدم، ويتصل النصر له وينتظم السلم، وأخرى أنه رحل إلى الموطأ رحم الله مالكة، ويرحل فيما يطلب من الشام إلى الموطأ أسعد الله به ممالكه، والله تعالى يحقق الخير، ويصرف الضير، ويبارك لمولانا في المقام والسير إن شاء الله.

قلت: هكذا يقع في كتب الفاضل رحمه الله كثيرا، وهو أنه يجتمها بالأدعية متصلة بقوله إن شاء الله، والتعليق بالمشيئة غير لائق بالأدعية،

ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يقل أحدكم اللهم أغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، اللهم ارزقني إن شئت، ليعزم مسألته فإنه يفعل ما يشاء لا مكره له » (٨).

فصل

في أمور تتعلق بولاية اليمن في هذه السنة

قال العماد: كان الأمير مجد الدين سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ نائبا لشمس الدولة أخي السلطان بزويد، وحصل له من أموالها الطريف والتلديد، ثم ابتاع من السلطان الناحية المعروفة بالعدوية بمصر لما عاد إليها، وبقي أخوه حطان بزويد واليا عليها، فصنع دعوة عظيمة بها، ذكر العماد أنه حضرها هو وغيره من الفضلاء الأعيان، فبينما هم عنده في أسر حال إذ أحدق بهم الأمير بهاء الدين قراقوش فقبض على سيف الدولة، واعتقل بالقصر، وكان سببه أن أقارب السلطان وخواصه أكثروا عليه عنده أنه استوعب مال زبيد وأن له كنوز لا تبديد، وأشاروا عليه بقبضة وهو يدافع عنه إلى أن أكثروا، وقيل فيه إن لم تدركه فات، فأمر به فاعتقل فسمح للسلطان خاصة من النقد المصري بثمانين ألف دينار، ولم يظهر فيها بيع متاع ولا استدانه من تجار، وغرم لأخوي السلطان العادل وتاج الملوك محافظ به على نهج الكرم المسلوک، وخرج مشرفا مكرما، مصرفا محترما، وزاد السلطان في تكرمته، وأنفذ إليه بما قبضه منه خط يده بأن المبلغ دين في ذمته، ثم باعه أملاكا بمصر بتقدير ثلاثين ألف دينار، وبذل له كل ما طلب عن ايثار واختيار، وزاد في إقطاعه، وبارك الله في أشيائه وأشياعه.

قال العماد: وكان هذا الأمير من رجاحة عقله، وحصافة فضله، ما سمعت منه شكوى، ولا حكاية في بلوى، وقتل أخوه حطان بزويد وأخذ ماله، فلم يظهر منه للسلطان كراهه، وكل شيمته نزاهة ونباهة.

قال: وكان لما توفي الملك المعظم شمس الدولة أشفق السلطان من نوابه باليمن، وذكر مابين ولائها من الإحن، ووصل الخبر بما يجري بين

الأمير عثمان بن الزنجيلي والي عدن، وبين الأمير حطان والي زبيد من الفتن، فندب إلى زبيد عدة من الأمراء لحفظ البلاد، وإصلاح الأمور التي يخشى عليها من الفساد، ومن جملتهم والي مصر صارم الدين خطلياً، وبقيت الولاية بها في غيبته يقوم بها نوابه ويرجع إلى رأي أهله وأصحابه، فشرعت زوجته في عمارة دار عظيمة سنية، وذكر العماد أنه حصل له ولغيره من الأعيان بها ضيافة جليلة انفاقية.

وقال ابن أبي طي: كانت نفس سيف الاسلام طغتكين أخي السلطان تشرئب إلى اليمن، من حيث مات أخوه شمس الدولة، ويشتهي أن يصير إليها فأمر ابن سعدان الحلبي أن يعمل قصيدة يعرض فيها بإنفاذ سيف الاسلام إلى اليمن، فعمل القصيدة التي يقول فيها:

جردها السيف الصقيـل فتنة
فالسيف لا يذخر إلا للفتن
شدبه أزر العلى فإنه
نعم فتى من شرع الجودوسن
القائل المسموع في مقالته
والصادق النـدب الأمين المؤمن
بأدي الفـؤاد كيفما سيرته
حسن إلى دار الوغى ثممت أن

وفيها يقول:

يا بن الكرام النجباء والذي
تلقف العلياء فيها ولقن
لا تعد عيناك عن الملك فما
يخاطب العلياء إلا من ومن
قد فسد الملك وقد طال العدى
واقسموا بعـدك أموال اليمن

قال: فلما سمع السلطان هذه القصيدة أذن لسيف الاسلام في المسير إلى اليمن.

وقال العماد: وفي هذه السنة تقرر مع سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب أن يمضي إلى بلاد اليمن وزبيد وعدن، وأن يقطع بها الفتن، ويتولاها ويولي ويعزل، ويحسن ويعدل، فسار بعد مسيرنا إلى الشام، وجرت مملكته فيها على أحسن نظام، وذلك في سنة ثمان، ووصل إلى زبيد وحط حطان عن رتبته وأمنه وطمنه، ثم أذن له في الانفصال إلى الشام، فجمع حطان كل ماله من سبد ولبد، ومطرف وملتد، ولجين وعسجد، وياقوت وزبرجد، وآلات وعدد، وحصن وحجور عراب، ومال اعتقده من اليمن بغير حساب، ثم أناخ جماله، ورحل عليها أحماله وقدم قدامه أثقاله، وظن أنه نجا وفاز، وركب الأوفاز، فرده إليه ليودعه ثم يشيعه ويركب معه، فلما دخل عليه اعتقله، وسير وراء ماله من اقفله وإلى خزائنه نقله، ثم انفضه إلى بعض معاقله فحبسه ثم قتله، وفيما ذكر للسلطان من خبر ذهبه وماله والذاهب مايعي بحصر تفاصيل جملة أنمل الحاسب، أن نيفا وسبعين غلافا من غلف الزرد كانت مملوءة بالذهب الأحمر المنقذ، وقوم المأخوذ بقيمة ألف ألف دينار، وأما صاحب عدن الأمير عز الدين عثمان بن الزنجيلي، فإنه لما سمع بسيف الاسلام توجه إلى الشام.

قلت: ولهذا الأمير أوقاف وصدقات بمكة واليمن، ودمشق، فإليه تنسب المدرسة والرباط المتقابلان بباب العمرة بمكة، والمدرسة التي خارج باب توما بدمشق رحمه الله.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إليه: «البلاد لك فيها عدة سنين، وأنت فيها مؤتمن على مال الله فأده إلى من يجاهد به أعداء الله، ويقيم به كلمة الله، ويحفظ به البيضة ويذب به عن الملة، ويقاتل به أعداء القبلة،

ويضرب بالأسداده بين الكفر والاسلام، وينصب وجهه بين الهجير
والزمهير عاماً في إثر عام، وما نطلب منك الباطل الذي لا يجوز لنا أن
نطلبه، ولالك أن تدفعه، ولا نريد إلا الحق الذي لا يجل لنا أن نتركه،
ولالك أن تمنعه».

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: وفي هذه السنة وصل إلى السلطان من دمشق العلم خطيب المزة، وكان قد زور على السلطان مثالا يتضمن له منالا، ورفعه إلى عز الدين فرخشاه فما خفي تزويره عليه، وهم بالايقاع به، فقصد السلطان بمصر وأطلع على حاله فما أكثرث به، وقال تحقق مازورت وأمر أن يكتب له توقيع بضعف ذلك الإدارار.

قال: وكان له إمام يصلي به، وهو يكتب مثل خطه، فأطلق به أموالا وأصلح وأنجح بتزويره لأصدقائه أحوالا، وما يشك صاحب ديوان ولا متولي خزانة في أنه صحيح، فلما دام سنين انكشف، وشارف التلف، وجلس أخوة السلطان وأمرأؤه عنده يغرونه به، فقلت له بالعجمية سرا تهبه للقرآن، فقال: نعم فنفس من خناقه، وأمر بإطلاقه وأبقى عليه خيره حين استبدل به غيره، وصار بعده للعادل إماما، وبقي شغله معه مستداما.

قال: وفيها غدر الفرنج ونقضوا عهدهم، واستولوا على تجار في البحر وغيرهم، وسهل الله تعالى بطسة عظيمة من المراكب الفرنجية مقلعة من بلد لهم يقال له بوليه تحتوي على ألفين وخمسة مائة نفس من رجال القوم وأبطالهم، فألقتهم الريح إلى ثغر دمياط فغرق منهم الشطر، وشمل الباقين الأسر، فحصل في الأسر منهم زهاء ألف وستة وستين وسبعين نفسا، واتفق ذلك أمام الإهتمام بالمسير إلى الشام.

قال ابن أبي طي: وفيها ولد للسلطان الملك المعظم تورانشاه، والملك المحسن أحمد بينهما سبعة أيام، واتصل الفرغ بهما أربعة عشر يوما. وفيها

سار قراقوش إلى إفريقية، فأوغل في بلادها وانتهب ما قدر عليه وحارب
عسكر ابن عبد المؤمن بالقيروان، ثم بلغه أن ابراهيم السلاح دار
احتوى على أهل قراقوش وبلده، فرجع إليه، فهرب ابراهيم وسار إلى
خدمة ابن عبد المؤمن، وملك قراقوش ما كان بيد ابراهيم.

قال ابن القادسي: وفيها عشية الخميس ثامن شعبان توفي الإمام كمال
الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي السعادات الأنباري
النحوي، وكان فقيها نحويا زاهدا عابدا، خشن العيش صبورا على
الفقر، وكان يسرد الصوم ولا يقبل من أحد شيئا، وكان يحضر في نوبة
الصوفية بدار الخلافة المعظمة في الوقت، فينفذ إليه بالتشريف والذهب
فيعيده ولا يقبله، وكان يجتهد به الوزير ابن رئيس الرؤساء أن يقبل لولده
شيئا، فما كان يفعل، وكان يفطر على الخبز الخشكار، ويتعاب برغيف أرزا
وما شاء، وكان بابه مفتوحا لطالبي العلم يعلمهم لوجه الله تعالى، وكان
إذا حضر أحدهم في الصيف مروحة يتروح بها، فإذا خرج يقول له: خذ
مروحتك معك، فيجتهد به ذلك أن يجعلها عنده إلى غد فما يفعل،
وصنف تصانيف كثيرة، ودفن في تربة أبي اسحاق الشيرازي رضي الله
عنه.

قلت: وفيها توفي بمصر الشاعر ابن الذروي، وهو أبو الحسن علي بن
يحيى المصري، وسنه حول الأربعين، وقد تقدم من شعره في حج
الفاضل، وفي مدح ابن منقذ وغيرهما، ومن ظريف شعره قوله في أحدب:

يا أخي كيف غيرتنا الليالي
كيف حالت ما بيننا بالمحال
حاش لله أن أصابني خلا
فيراني في وده ذا اختلال
زعموا أنني أتيت بهجـو
فيك نمقتـه بسـم حلال

كذبوا وإنما وصفت الذي حـز
ت من النبل والسنا والكمال
لا تظنن حـدبة الظهر عيـا
فهـي للحسن من صفات الهلال
وكـذاك القسي محدود بـسات
وهـي أنكى من الطبا والعوالي
ودناني القضاة وهـي كما تعلـ
م كانت موسومة بالجمال
وإذا ماعـلا السنـام ففـيه
لقـوم الجمال أي جمال
وأرى الإنحناء في منثر الـ
كاسر يلقى ومخلب الريـال
وأبو الغصن أنت لا شك فـيه
وهـو رب القوام والاعتـدال
قد تجليت بانحناء فأنت الـ
رأك المستمر في كل حال
وتعجلت حمل وزرك في الظهر
رفأمنافي موقف الأهوال
إن حمل الذنوب أهـون في الدنـ
يا على أنه من الأثقال
كون الله حـدبة فيك إن شئـ
ت من الفضل أو من الأفضال
فأنت ريوحة على طود حلـم
منك أو موجة ببحر نوال
مأرتها النساء إلا تمننت
لو غدت حلية لكل الرجال
عدلى ودنا القديـم ولا تصـ
غ لقيـل من الشو شاة وقال

فصل

في عود السلطان من الديار المصرية إلى الشام

قال العماد: وعدنا من الاسكندرية إلى القاهرة في ذي القعدة وشرع السلطان في الاستعداد لسفر الشام، فجمع العساكر والسلاح، واستصحب نصف العسكر، وأبقى النصف الآخر يحفظ ثغور مصر، وأمر قراقوش بإتمام الأسوار الدائرة على مصر والقاهرة.

قال: وكان السلطان عشية توديعه لأهل مصر جالسا في سرادقه، وكل ينشده بيتا في الوداع، فأخرج أحد مؤدبي أولاده رأسه وأنشد مظهرا له فضله، ورافعا به محله:

تمتع من شميم عرار نوجد

فما بعد العشيّة من عرار

فلما سمعه خمد نشاطه، وتبدل بالانقباض انبساطه، ونحن ما بين مغضب ومغض، ينظر بعضنا إلى بعض، حتى اتصل العجب من مؤدب ترك الأدب، فكأنه نطق بما هو كائن في الغيب، فإنه ما عاد بعدها إلى الديار المصرية حتى اتصل بنجح المنى إلى المنية.

قال: ومن جملة تسمج المعلمين في القول ما حكاه لنا شيخنا أبو محمد ابن الخشاب قال: وصلت إلى تبريز فأحضرني يوما رئيسها في داره، وأجلس ولده ليقرا بعض ما تلقنه علي، فقلت فرخ البط سابح، فقال معلمه وكان حاضرا: نعم وجرو الكلب نابح، فخجلت من خطأ خطابه، وإذابه على دأبه في سوء آدابه، ومقصوده أن يذكر قرينه ولا يبالي بعينه قريرة أم سخينة، ودأب أدباء أولاد الملوك لاجترائهم على أعزة أولادهم الإجتراء على الأباء، ويحتمل ما يصدر منهم لعزة الأبناء، وإنما يصلح لمجالسة الملوك من يحتفظ في كلامه، ويتيقظ في منامه.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين

قال العماد: ففي المحرم منها دخل السلطان من البركة قاصدا إلى الشام، ولم يعد بعدها إلى مصر حتى أدركه الحما، وأخذ على طريق صدر وإيلة في المفاوز، فبات بالبويب، ثم كانت منازلها على الجسر، ووادي موسى وحثا وصدرا، وبعد خمس ليال وصل عقبة إيلة، وهناك سمع باجتماع الكفار بالكرك لقصده قطع الطريق، فاحترز بحفظ الأطراف، وجاز بحسمى، ثم عقبة شتار، ثم القريتين، وأغار في تلك الأيام على أطراف بلاد العدو، ثم تجرد السلطان في كياته وسلك بهم سمت الكرك إلى الحسى وأمر أخاه تاج الملوك بوري على الناس، وأمره بأن يسير بهم يمينا منه، ثم اجتمعوا بالسلطان بالأزرق بعد أسبوع، ووصل الخبر بظفر الملك المنصور عز الدين فرخشاها.

قال العماد: ويلقب أيضا معز الدين، بما غنمه أيضا من بلاد العدو، وذلك أن الفرنج لما سمعوا بمسير السلطان من مصر ومعه خلق من التجار اجتمعوا بالكرك للقرب من الطريق، لعلهم ينتهزون فرصة فيقتطفون من القافلة قطفه، فخرج فرخشاها من دمشق، واغتنم خلو ديارهم فأغار على بلاد طبرية وعكا وفتح دبورية، وجاء إلى حبيس جلدك بالسواد وهو شقيف يشرف على بلاد المسلمين، ففتحها وأسكنه المسلمين، فبقي عينا على الكفار، بعدما كان لهم، ورجع بالأسرى والغنائم مظفرا منصورا، ومعه ألف أسير، وعشرون ألف رأس من الأنعام، ثم وصل السلطان بصرى ودخل دمشق سابع عشر صفر.

قال: وفي العشر الأول من شهر ربيع الأول خرج السلطان وأغار على بلاد طبرية وبيسان، والتحم بينهم القتال تحت حصن كوكب، واستشهد جماعة من المسلمين، ولكن كانت الدائرة على الكافرين، ورجع السلطان بحمد الله ظافرا، وكتب بالمثال الفاضلي إلى الديوان: « وكان الخادم طالع

بخروجه من مصر طالبا للغزاة المفروضة والمسافة بين مصر والشام لمن يرفق في المسير لا تقصر عن ثلاثين يوما، فحشد الفرنج ونزلوا بالكرك على إرجاف بالمصاف، ولم يزل الخادم على مداومة الأعمال إلى أوساط الأعمال، فحل بها وشن الغارة فأبعد، وأذكى النار فأوقد، وطلب الماء المحمي أزرقه بأزرقهم فأورد، وسفك دم الخصب بالنار وأخذ، وفيها عدل السيف الجار بالجار، وعلم أن الفرنج قد تسللوا لوإذا وتعللوا بالحصون احتجازا ولياذا، وأنهم لا يقاتلون إلا في قرى محصنة، ولا يقابلون إلا على نجاة متيقنة، وسرح الخادم إلى تلك الذراري، واستفز لها من كل فرقة منهم طائفة، وساروا في طريق على العدو غير خافية، ومنهم غير خائفة، وركب هو وحمية الاسلام الحامية التي تستنهض أرواح الكفر إلى نار الله الحامية، وسلك البلاد المؤدية أوديتها إلى سيول الشرك الطامية، وسيوف الضلال الدامية، فجنموا جنوم الكسير، وجدعوا أنوف الأنف جدعا قصر فيه رأي قصير،^(٩) وجاز الخادم المسافة المقابلة لهم التي كانت تجاز في يوم واحد في أيام، وأورد عليهم طيف الخوف غير لابس ثياب الأحلام، ويسر الله الوصول ورقاب عصبة الكفر تكاد تتوثب عليها رفاقها، وعيون الأعيان منهم قد قيدها للذل أطواقها، وتوجه يوم الاثنين سابع شهر ربيع الأول، ونزل أمام طبرية ليلة الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول، فجاءه الخبر بأن الفرنج رحلوا في ليل ركبه جملا ولبسوه سترا، دون اللقاء مسبلا، وأصبحت الأطلاب الاسلامية طالبة الأردن، وأشرف عليهم المملوك فرخشاه، وكان على ميسرة الاسلام فما خرج منهم من أخرج كفا، ولا تطرف منهم من أجال طرفا، ولا ركض طرفا، ولم يزل الخادم مقبلا ينادي للخروج الصم الذين لا يسمعون الدعاء إلى أن طوى النهار ملاءته، ومد عليهم كلاءته فإنه رعى ما بينه وبين مناسبة وجوههم وصحافتهم بسواده ولأن الليل يدعى كافرا فهداهم وخبأهم في فؤاده، وانبرى لهم من الممالك ذوو سهام كل رمية منها طعنة، وكل أنة من قوسها تجاوبها للحين أنة، فاستخرجوا ضمائر كنائهم وقصدوا بها ضمائر

ضغائنهم فمرت كأن التوفيق يقودها إلى حيث أمت فأماتت، وطارت جرادا يرعى زرع الحياة، فبتت وما أباتت، ولم يروا مضاجع ذوات حسك كمضاجع حسكها المستهام، ولا ليلة لهم ذات أحلام كليلة حلمها يقظة الحمام، وأصابت خيولهم صوائبها، وتعلقت نصالهم بدهمها، فكأنهم في ظلماتها كواكبها، فلما انشق الصبح غيظا من شقاق كفرهم شوهدوا نازلين من حصنهم الذي كانوا إليه آوين، وطالبي التباعد عنه إلى حصن الطور الذي كانوا إليه ناوين، فساقت إليهم أطلاب الميسرة صحبة المملوك فرخشاه، وساق المملوك عمر من الميمنة طالبا لحومة القتال، فرأوا الخطة عليهم متضايقة، وشهادات البلاء إلى ففتحهم متناسقة، وأنزل الله النصر من سمائه على مطيعه في أرضه، ومنح نافلة المهوبة لمن قام في الجهاد بفرضه، وتوالت من الفرنج حملات ألجأهم إليها الإضطرار لا الإختيار، وثبت من دنا منهم من المسلمين من الأطلاب، ولقوهم وهم الأعداء لقاء الأحباب، وتعانقت لغير الوداد، فصارت أيديها أوشحة، وطارت إلى أقرانها فصارت أرجل الخيل لها أجنحة، وصرعت للفرنج أبطال وخيالة، وتمت الحملة الإسلامية على من كان وراءهم من الرجالة، فأخذ القتل كثيرا وقليلًا ترك، وفرت روح الكافر من الجسد وعلمت النار أية سلك، وألجأهم البلاء إلى حصن يعرف بعفر بلا، وسع الخوف منه ما هو ضيق، وتعلق بالحياة منهم من هو متعلق، ولم تتصرف صدور الخيل دون أن اعتقلتهم في سجنه، وألزمتهم به، فصاروا قرطا في أذنه، وكان ذلك اليوم من الأيام الذي اضطرمت فيها نيران الجحيم ارتياحا لمن قدمها من أرواح الكفار، وكان قائم الظهيرة في الغور قد منع من استتمام عودة المغار، ومورد الماء بعيد من غريمه والري ولو أنه من حميم أحب إلى المرء من حميمه، فمالت الجنود إلى المناهل متفرقة عليها، ومنصرفة إليها، وحافة بها من حواليتها، وأذعن الكفار بالحصر والتفادي من الأصحار، والإعتماد على المطاولة والإضجار، والاستعصام بما لا يطاق من أنفاس الهجير الجرار، وبات الخادم والمسلمون على الحصر المذكور

الذي يأتونه نازلين، قد حققوا من أحوال اللقاء ما كانوا به جاهلين،
وفعل الله سبحانه وتعالى في هذه النبوة ما عواقبه مسفرة عن المراد،
ودلائله محققة لقوله تعالى: (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد) (١٠)
وإن الكفر مذ قام قائمه، والشام مذ حله ظالمة، لم يعبر أحد من ولاية
الأمر هذا الحد إلا على حين غفلة من أهله، ولم يواجه الكفر وهو مجتمع
في خيله فضلا عن رجله، ولم يهدد العدو بضرب مصاف إلا واستكانت
العزائم لتهديده، ولم يجمع أمره على اللقاء إلا صرفه عن الأمر يصرفه
ذهبه لأبحديده، فأما الآن فقد أنس المسلمون بحزبه، وتمرنوا بحربه.